

خطوات العائلة المقدسة في مصر

تأليف

فتحى فوزى عبد المعطى



خطوات العائلة المقدسة في مصر

تأليف

فتحى فوزى عبد المعطى

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَلَقَكِ عَلَى نَيْسَاءِ الْعَالَمِينَ)

قرآن كريم - سورة آل عمران الآية (٤٢)

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ)

قرآن كريم - سورة المؤمنون الآية (٥٠)

“أفضل النساء مريم بنت عمران”

حديث شريف

(مبارك شعبي مصر)

أشعياء الإصحاح ١٩ (٢٥)

إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلمه، وقال له:

(قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرِبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ
لَكَ، لِأَنَّ هِيرُودُسَ مُرَافِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ)

إنجيل متى الإصحاح الثاني (١٢، ١٣)

لما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف
قائلاً:

(قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْجِبْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُ قَدْ مَاتَ
الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَفْسَ الصَّبِيِّ)

إنجيل متى الإصحاح الثاني (١٩، ٢١)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مصر.. مهد الحضارات منذ آلاف السنين.

وإذا كان للسماء أن تفخر بنجومها وأفلاكها، ولأرض
أن تفخر بأشجارها وأعشابها ومياهها، وحياة الإنسان
عليها ..

فإن لمصر أن تفخر بأنها البلد الذي كان مزارا للكثيرين
من الأنبياء والمرسلين:

فإلى مصر.. جاء خليل الله إبراهيم عليه السلام .. جد
الأنبياء .. تصحبه زوجته سارة.

ومن مصر.. كانت هاجر التي تزوجها إبراهيم، لتنجب له
بكره إسماعيل .. جد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وإلى مصر.. جاء نبي الله يوسف عليه السلام .. اشتراه
عزيز مصر، ليكون فيما بعد أمينا على خزانها.

وإلى مصر، جاء نبي الله يعقوب ويوسف، أخوة يوسف،
ليجدوا كل ترحيب ومودة من أهلها.

وفي مصر.. كان مولد موسى عليه السلام وعلى أرض

سيناء كلمه ربه بالوادي المقدس طوى، واليه جاء يدعو
فرعونها إلى عبادة الله وتوحيده.

وإلى مصر - جاء نبي الله عيسى عليه السلام مع عائلته ..
هرياً من بطش هيرودس، ليجدوا فيها الأمان والسلام والمحبة.
ومن مصر - كانت السيدة مارية القبطية زوج رسول الله
محمد صلى الله عليه وسلم.

واليوم - أوغدا - يبدأ عام جديد هو نهاية الألف الثانية
وفجر الألف الثالثة لبعث المسيح عيسى عليه السلام، فتعود
إلى الأنهار نكريات كثيرة في حيلة العالم عامة .. ومصر
خاصة، باعتبار أنها كانت مزاراً للعائلة المقدسة.

وهذا الكتاب .. متابعة لخطوات العائلة المقدسة في
مصر، وما وقع خلالها من أحداث ومعجزات وبركات ..
أجراها الله على يد عيسى عليه السلام، وهو ما يزال طفلاً
صغيراً.

وقد راعيت في هذا الكتاب عدة اعتبارات أهمها:

١- الاعتماد في هذه الدراسة على ما جاء في القرآن الكريم،
وفي الأنجيل، والكتب التي تعرضت لهذا الموضوع.

٢- التعرف على الأماكن التي زارتها العائلة المقدسة في
مصر، وتوضيح معلومات عنها من الناحيتين التاريخية
والجغرافية .. متى أمكن ذلك.

٣- دراسة للظروف التاريخية والسياسية التي كانت تعيشها

كل من فلسطين ومصر في هذه الفترة، باعتبارهما المسرح
الذي دارت عليه الأحداث.

٤- الاعتماد في خطوات العائلة المقدسة على أصدق
الروايات، وما أجمعت عليه أكثر الآراء .. بما يتفق مع
العقل والمنطق، والبعد عن الآراء الأحادية.

٥- وإذا كان للخيال بعض من نصيب في تقايح الأحداث
والخطوات، فلم يكن ذلك إلا بقدر يسير .. أمكن توظيفه
لخدمة تسلسل الأحداث، وبما يتناسب مع كل شخصية
من شخصياتها.

٦- في نهاية الكتاب .. يجد القارئ مجموعة من الخرائط
التي توضح خطوات سير العائلة المقدسة، والمدن والقرى
التي زارتها.

والله ولي التوفيق

المؤلف

فتحى فوزى عبد المعطى

(١)

كان ذلك منذ ما يقرب من ألفى عام ..

كان الخريف قد أبحر، ليُمنِلَ الكون إلى الشتاء ببريقه،
وأشرق نور الصباح، فقامت مريم ابنة عمران -كعانتها- إلى
مصلأها .. تناجى ربها .. تشكره .. تدعوه، ثم نظرت في الأفق
حولها، فإذا قرص الشمس يعلو في السماء، يمنح العالم
الدفء والنور، وقد بدأت الحياة تدبُّ فيما حولها .. كل ما
يسرُّ له الرب من رزق.

وتطلَّعت مريم إلى وجه ابنها عيسى، فأحسَّت بالرضا،
ويشور بضيء كل ما حولها. لم تدبر مريم بنفسها، وقد ارتدَّت
بها الذكريات .. ذكريات كثيرة تطفو على ذهنها، وصور
عديدة عاشت أحداثها .. تُعاوِدها .. تقراي أمامها، كما لو
كانت حاضرة بين يديها.

إنها تتذكر ذات يوم بعيد .. يوم انتهت مدة خدمتها في
هيكل الرب، وبلغت مبلغ النساء في قومها، وشاء لها رجال
الدين أن تكون واحدة مثل غيرها من أترابها .. تتزوج، وتعيش
حياتها .. تشارك زوجها حياته وأماله.

يومها اختلف القوم فيمن يكون خطيبا لريم، وهي سائلة
الأنبياء، وربيبة بيت الرب .. فقررها أمها لخدمته .. طائفة.

فتعشع قلبها، وتحرك وحنانها على طاعة الله، فما يستطيع أحد أن يقطع في أمرها وحده.

يومها أوحى الرب إلى الكاهن زكريا أن علامة ستظهر على من اختاره حطيباً لمريم . أكثر من ألف وسبعمئة شخص من الشباب والرجال والشيخ . كتب كل منهم اسمه على عصا، وبعد الصلاة دخل زكريا الحراب، يسلم كل واحد عصاه، وحينما جاء دور عصا أحدهم . خرجت حمامة بيضاء . استقرت على رأس صاحبها، فكان هو حطيب مريم.

وتطلع الحاصرون، ليزروا من يكون هذا الذي اصطفاه الرب لمريم .. كان الشيخ يوسف النجار الذي حازن الثمانين من عمره، واقترب من التسعين! ودهش يوسف النجار لاختياره لهذه المهمة الصعبة، وشاركه الدهشة كل من حضروا، فكيف لشيخ محزون قد اكتهل، وشاخص به الأيام إلى شقاء عمره . أن يتزوج من فتاة جميلة، ما تزال في بواكير ربيع عمرها، كرهرة ندية، وكيف لهما أن يسافرا ركب الحياة! كم حزن كثير من الشباب الذين تمنوا أن يحطوا بمريم عروساً . كثيراً ما حاولوا أن يطرخوا باب قلبها، فلم يتصل بهم الأمل وما أرادوا .. لكن هؤلاء هؤلاء، لا يملكون إلا أن يبعدوا اختيار الرب ومشيقته.

وسعدت مريم باختيار الرب لها، رغم هارق السن بينها وبين يوسف، فلما كان الخداة . سافرا الحطيبان إلى الناصرة، حتى يحين الحين، فيتزوجا وفقاً لشريعة موسى . حيث عاشت

مريم مع حبيبها . ترعاه، تشاركه حياته وكفاحه كنجار

حتى كان ذات يوم . ذهبت مريم بصحبة بعض من
أترابها إلى بئر القرية . يملأ جرارهن، وانصرف أترابها،
وتعذرت هي قليلا، فزاعها أن تجد نفسها وحيدة، ولدهشتها،
سمعت صوتا يهتف بها:

- (مباركة أنت من النساء يا مريم ^(١))

يومها ملأ الخوف قلبها، وهزتها المفاجأة، وأدهشها أن
تجد أمامها منى جميلا، يقتحم عليها وحدثها، حتى أنها
ارتكبت في يقطعتها، وظنت أن ما تراه ليس إلا طيفا من
خيال، يسرى صوته في هدأة المكان، لكن الطيف يدعو
شاخصا أمامها .. تراه عينها، وصوته يدق سمعها، فما ظلك
إلا أن تلوذ بربها، تمسوه . تهتف من أعماقها:

- (... إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) ^(٢)

وحاءها صوت الفتى الذي أمامها .. يقول لها هي سيرة
روحانية:

- (إني أنا رسول ربك لأتبع لك غلاما
زكيا) ^(٣)

قالت مريم في دهشة مما تسمع:

(١) إنجيل لوقا الإصحاح الأول (٢٨)

(٢) سورة مريم الآية (١٨)

(٣) سورة مريم الآية (١٩)

- (أَلَيْسَ يَكُونُ إِلَى عَلَامَةٍ وَلَمْ يَمْنَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ نَبِيًّا) (١)

وعاودها صوت الفتى يقول لها على لسان ربه

- (... كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلَقَدْ خَلَقْتُ آيَةً لِلنَّاسِ
وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مُقْضِيًّا) (٢)

يومها .. أتركت مريم بشفاقية إيمانها أن هذا الفتى هو
ملاك الرب، فما مضت بضح لحظات، حتى اقترب منها ..
وبدح في حبيب درعها، فحملت بكلمة من الله وروح منه.

يا لها من لحظات عاشتها مريم في تلك اليوم، وأفكار
كثيرة تتصارع في ذهنها المكبوت، فتعود إلى دارها، وتهدأ إلى
مضامها تدعورها .. تسأله أن يهبها الأمان، ويحببها
الخاوم، فماذا يكون أمرها مع يوسف؟

ومضت مريم في تكرياتها، كأنما تستقرئ الماضي.

إنها تتذكر .. يوم أحسست بشكوك يوسف، وقد أرققه
العكس، أو كأنما ألحنته حراح الشك، نوحه، وقد خاضه الصبر،
وعلامات الحمل تكبر على مريم، ولأن يوسف بشر، يخشى
الفضيحة أمام آبائهم، ومقالة السوء في قومه، فآثر أن
يتخلى عنها .. حتى إذا يطلب الراحة .. غفقت عيناها،
فراى ملاك الرب يهتف به

- يا يوسف يا ابن داود .. لا تحف أن تأخذ مريم امرأتك،

(١) سورة مريم الآية (٢٠)

(٢) سورة مريم الآية (٢١)

لأن الذي حملت به هو من الروح القدس، وستلد ابنًا يخلص شعبه من الخطايا^(١).

منذ ذلك اليوم شُكِّت يوسف مريم، وقد أخذ على نفسه عهدًا أن يبق معهما .. يذود عنها كل شر .. يرعاها .. يحبها من كل سوء

ونضى مريم في ذكرياتها ..

إنها تذكر .. حين قدمت مع يوسف إلى بيت لحم، لوسجلا اسميهما في سجلات مدينة داود، تنفيذا لشريعة هيرودس وسيد أغسطس قيصر روما.

كان يوما حائثا في حياة مريم .. حيث نزلت في مكان خارج مدينة بيت لحم .. على مقربة من مزود يقرأ أهله الرعاة في تلك الليلة .. لم يستطع يوسف أن يحصل لهما على (حان)، ليقيما فيه الليل، فقد كانت المدينة مزدحمة .. ليلتها أحست مريم بعلامات الحاض تهرها وهي وحيدة، فالتفت إلى جده بغلة جاف .. تحتمنه، كلما ألت بها الألام، وأفكار كثيرة تتراحم في رأسها، وهي تتذكر قومها حين تذهب إليهم .. تعمل ولدها، دليل جريمتها، كما يظنون، ويعلم الله أنها مدبرة من كل إنم، مظهره من كل دنس، مما صنع لسانها من أن يهتف

- (... يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا)^(٢)

(١) إنجيل متى - الإصحاح الأول (٢٠، ٢١)

(٢) سورة مريم الآية (٢٣).

فما هي إلا لحظات . حتى انفصل عنها حينئذها .
تصاحبه هالة من النور . أضاءت كل ما حولها، وسمعت
أصواتا ملائكية تغنى.

- المجد لله فى الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس
المسرة^(١).

والفت مريم نظرة حولها، فإذا جدد النخلة الجاف قد
استحل إلى نخلة باسقة .. احضرت أغصانها، وتبلت
شارها، على غير موعدها، فتمنت مريم لنفسها حبسات من
البلح .. تعوض به ما فقدته من جهد المحاص، وبصبح قطرات
من ماء تبل به خلقها، فعادها صوت ملاك الرب . يبدئ في
نفسها الطمانينة يناديها

- (.) الْآتُخْرَنِي قَدْ حَمَلَ رُؤُوكِ ثَمَرًا * وَهَرَى إِلَيْكَ
بِحِلَاحِ النَّخْلَةِ تُسَلِّطُ غَلَّتْكَ رُطْبًا جَنِيًّا * فَكَلِّى وَأَشْرِبِي وَفَرِّى
غَيْثًا ...)^(٢)

عند تلك قامت مريم، فغسلت ابنها وقمطته، وقد فاصت
بها عاطفة الأمومة، ثم تناولت ما شاءت من حبات البلح،
وشربت ماء طهوراً .. عذبا .. شاكرة لله فضله وبعمه، وسمعت
ملاك الرب يهتف بها:

- (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى

(١) إنجيل لوقا - الإصحاح الثمانى (١٤).

(٢) سورة مريم الايات (٢٤، ٢٦).

يَمْنَاءُ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ
الرَّاكِعِينَ (١)

هكذا كانت مريم في ذلك اليوم .. منذ ما يقرب من ألفي
عام. تُسامر بكرياتها وأحاديث نفسها، حين دخل عليها
يوسف، وهو أشدُّ ما يكون لهمة للعائلا، وقد كَسَتْ وجهه
سحابة من الضيق والخوف، وقال:

- لك الله يا مريم

قالت مريم في نبرة خوف، وهي تستشفُّ ما بدا على وجه
يوسف:

- عمادا يا ابن العم؟ لكأنك تخفى عني سرا .. تحفظه بين
طيات نفسك .. منذ لحظات .. كنت أعيش مع نفسي أحداثاً
مضت، وذكريات طافت بدهني .. نادعت صورها في عقلي
بسطورها، ما كان فيها خلواً، وما كان قاسياً .. ناكدت من
حلالها أن الرب معنا في كل خطواتنا، عبثاً الرب .. ماذا
يقلق خاطرك يا يوسف؟!

نظرت مريم إلى ابنها، فإذا ابتسامة مشرقة تكبر على
وجهه الصغير، فما يريد هذا إلا إيماناً بقوة الرب وحكمته،
عقالت

(١) سورة آل عمران الآية (٤٢، ٤٣)

- يا يوسف. دع عنك مخاوفك، وثق أن الرب لن يتخلى
عنا.

- أعلم ذلك يا مريم .. يا ربيبة بيت الرب .. لكن ..

- لكن .. ماذا يا يوسف؟ إن كلماتك ونبرات صوتك
تخبرني.

وهذا يوسف قليل، واعتدل في جلسته، ثم نظر إلى مريم،
وقال:

- هل تذكرين يا مريم هؤلاء الرجال .. الرجال المحوس؟

- انكرهم جيداً .. إنهم رجال جاموا من المشرق .. يتبعون
نجما لهم .. تقول كتبهم إن موعد ظهوره مقربن بعيلاد نبي
جديد .. يولد في أرض اليهودية، أليس كذلك؟

- بلى يا مريم

وعادت مريم تقول

- وانكر أنهم قدموا إلينا، وسعدوا بلقاء وليدي. أهذوه
الهدايا. لانا وذهبنا ومرا.

قال يوسف:

- كان هؤلاء الرجال قد تعاهدوا مع هيرودس أن ينادوه
على مكان الوليد، وأخشى أن يكوموا قد فعلوا، مما قد يصيب
بشر على أيدي هيرودس ورجاله
- والله خير حافظ لنا.

- لكن - علينا أن نرحل من هنا يا مريم

- وإلى أين يا يوسف؟! أتترك ديارنا وأهلنا بعد أن آمنوا
ببرائتي؟!؟

- إلى أرض غير أرضنا، وديار غير ديارنا، وقوم غير قومنا؟!
.. بهذا أمرني ملاك الرب

وأخذ يوسف يحكي لريم ما كان من أمره مع ملاك الرب،
حين غابت عنها لحظة، فسمعه يقول له

- (قم وحذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى
أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه^(١))

قالت مريم، وقد غلبها الفكر؟

- هي إذن مشيئة الرب، لا شك لها رجا

- وما علينا إلا الرخيل بعيدا ..

- إلى مصر

- وليهبنا الرب الأمان والسلامة

(١) إنجيل متى الإصحاح الثاني (١٣)

(٢)

سقط الليل على فلسطين، وغاب القمر في تلك الليلة، لأمر
شاه الرب، واحتلفت النجوم حلف سحب كثيفة من الظلام،
فما بدا منها إلا بقط صغيرة تنعد من فروج قميص الليل،
وأبرد الجو، فزاد الليل رهبة على رهبته، وغرق الكون في
سكون، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها، وهذا الناس،
يطلبون الراحة التي اعتقدوها في يقظتهم، لما يشعرونه من
ظلم حاكمهم هيرويس الذي طغى ونسى ربه . أساءه
الشياطان كل ما هو حق، وغلبه على أمره، فاعتد عن حادة
الصواب، وهوى إلى هاوية سحيقة، لا يستطيع منها الفكك.
هاكك على استبعاد بني مملكته، يرضى نفسه التي برعت إلى
الشن، ويرضى سادته من الرومان الذين يسيطرون على أرض
فلسطين . حتى رجال الدين نسوا تعاليم ربهم، وانغمسوا
في أهوائهم، يشابعون هيرويس ورعاه.

في وسط هذا الظلام .

.. هذه قافلة صغيرة - نمضي في الطريق، خرج أفرادها
من ديارهم في غير كازم، متجهين إلى بيت لحم، لعلمهم
يصلون إليها، ليتخذوا طريقاً آخر بعيداً عن فلسطين . *

شيخ عحوز قد حاور الثمانين من عمره، يتوكأ على عصا
تضطرب في يده . تمنعه شيخوخته من أن يسرع الحلق.

ومع ذلك، فهو ماضٍ في طريقه، ممسك بإحدى يديه زمام حمار أسود . تطلوه فتلة قزوية جميلة . يشع وجهها نورا وبهاء . ترتدى ثوبا أسود من الصوف الخشن، وتغطي رأسها وبعض وجهها بطرحة بيضاء . تحمل بين يديها طفلا صغيرا يرتدى سروالا طويلا .. علفت على صدره تعويده، وعلى رأسه ريشة قرمزية اللون، وظف الركب .. تسير امرأة فارعة الطول .. تنعثر في خريف عمرها. تحمل صرة بها متاع الأسرة من ملابس وطعام وشراذ.

إنهم يوسف النحار، ومريم العفراء، وابنتها عيسى، والقبيلة سالومة التي عاهدت نفسها أن تضي معهم حيث شاءوا، تشاركهم آمالهم وآلامهم بعد ما رأته من بركات ومكرمات للوليد الصغير

مضى الجميع في طريقهم .. يغدون السير حوبا، ويهدأون حيناً آخر، يتطلعون خلفهم، حوبا من أن يكون أحد يتعقبهم، وأفكار كثيرة تنساب إلى ذهن كل واحد منهم، وإن اتركوا جميعا في خواطرهم وآمالهم . تخالطها صور أخرى، حين تلعب بهم الفنون والخواف، مما يريدون كل هذا إلا إصرارا على المضي في الطريق الذي شاء الله لهم.

كانوا يسرعون، وفي عيونهم دموع تلتصع ولا تسهل، احتبسوها في مآقيهم .. يشع بعضهم بعضا نكبات الصبر والنسي .. لقد تركوا قوسهم وديارهم بلا وناح، ودون أن يلتفتوا بأحباتهم قبل أن يهترقوا .. انسحبوا وسط الحصى، خوفا من

أن يراهم أحد، فيسند عليهم الطريق وما أرادوا .. أو يفضح
وحيثهم .. خرجوا فرادى .. يتماقت بعضهم بعضا، حتى لا
ينكشف سترهم .. يأملون أن تكون رحلتهم إلى مآب ليعودوا
إلى أهلهم بعد حين قليل .. الأيس ملاك الرب أنبأهم بهذا^٩.
كم حربت مريم لأنها لم تستطع أن تودع ربيها زكريا، ولا
قربنتها أليصابات، أو ابنتهما يحيى الذى وهبه الله لهما فى
شيوختهما بعد طول انتظار ولهبة للولد، فكان صبرا لولدها
عيسى .. يفصل بين مولدهما ستة أشهر.

هكذا مضى الجميع فى طريقهم .. حتى وصلوا إلى مدينة
بيت لحم، وقد أحدهم السرى، فأنجسها إلى مكان ناء
بمستريحون فيه قليلا .. بينما مضت سالومة تجد فى البحث
عن طعام وشراب ليكون رآنا لهم فى رحلتهم الطويلة.

كان السلام ما يزال ينشر أربنته الحالكة على الكون،
فيلف بيت لحم وما حولها بغلالة سوداء قاتمة .. وقد هذا
حراس المدينة عند أبوابها . يطاردون النوم عن أجفاسهم .
يشعلون النار فى مجامر، يلتمسون فيها دفء لأجسادهم،
ويستلهمون من بصيص نقاياها المتقدة حواطر آمالهم
وأحاديثهم.

قال أحدهم

- ألا ما أعجب أمر هذا الرجل - هيرودس؟! وما أقساه
على شعبه الذى ناء كاهله من ظلمه وقسوته!

وقال آخر

- حتى رجال الدين .. انخرطوا في صفوفه .. نسوا دينهم،
وانغمسوا في ملذاتهم، وانتعدوا عن تعاليم ربهم، فسطوا،
ولاهت بهم الحقيقة.
وقال ثالث.

- وأطاعوا الشيطان، فافسد عليهم حياتهم
- أما كفاه ما كبل به شعبه من أعمال . أعجزته من أن
يخطئها ، فانهارت جسور الأمان بينه وبين الناس.
- ومازلنا نرتقب يوم الخلاص، متى يأتي؟
- أو لعل الرب يهديه، فيعود إلى الصواب.
- فمتى كان للصخر أن يثمر شرا؟

فبينما هم كذلك .. يعمرون عما تجهش به نفوسهم .. تلو
أصواتهم حينئذ، وتختف أحاديث كثيرة .. جاءهم كبيرهم،
واقترب منهم، ثم قال لهم في نبرة حارمة
- أغلقوا أبواب المدينة .. احكموا متاريسها.
- ؟

- هذه تعاليم سيدى العظيم .. هيرونس - ألا يحرص من
المدينة أو يبارحها أحد مهما كان أمره أو وجهته ..
وعلى الدهشة وحوش الحراس .. فقد كانوا يحرسون
المدينة من أعداء وطنهم .. ولكنهم منذ الليلة ينعون أهلها من
مغادرتها .. ينعونهم أرزاقهم وحياتهم، كأشأ غدوا سحناء في

ديارهم .. بينما عاد كبير الحراس يقول

- هذه تعاليم سيدى هيرودس.

وترك الحراس السيران فى مواقدها، حتى أن بعضهم أصابته لسعات من باركانت تتأهب للاشتعال، فما أحس بها، وأسرعوا إلى أبواب المدينة، فأحكموا مقاريسها .. بينما انصرف كبيرهم، وهو يتهددهم إن أهملوا فى تنفيذ ما أمرهم به

فى ذلك الوقت .

.. وصل ركب العائلة المقدسة، يوسف ومريم وابنها سالومة، وقد بدت على وجوههم -رغم قصر المسافة بين بيت لحم وعين كارم- مظاهر الإعياء، فقد أحبهدهم الظلام وقسوة البرد والخوف، مما هم مقبلون عليه.

كان بعض الحراس قد انخرطوا فى نوم عميق، بعد أن أحكموا إغلاق الأبواب، بينما بقى أحدهم ساهرا، فما كان يرى القادمين، حتى اقترب من يوسف، وتقدم إليه وسأله:

- من أنتم؟

ارتبك يوسف، فلم يكن يتوقع أن يعترض طريقه أحد وسط هذا الظلام، لكنه سألك نفسه، وقال كمن يدعى عن نفسه تهمة الغربة.

- عائلة يهودية من فلسطين.

- على الجهات تقصرون؟

- إننا نقصد خبرون، لنقدم واجب العزاء لبعض أقاربنا.

- لكن أوامر سيدى هيرويس تمنع معاصرة المدينة - أمرنا بهذا كبير الحراس، تنفذنا لشئنة سيده.

ما كادت مريم تسمع كلمات الحارس .. حتى طاف بها طائف من القلق، وشكها الخوف .. لا عليها، ولكن على ابنها، فقد راضت هى نفسها على احتمال الصبر والكاره، وشاركها خواطرها كل من يوسف وسالومة . لكن الجميع تذكروا أن الرب هو الذى أمرهم بهذا، ولأنه أن يحزنهم المشاق، ويهددهم إلى الصواب

واتحه يوسف إلى الحارس، وقال له:

- لقد قطعنا الطريق وسط هذا الطلام، حتى نستطيع أن نصل إلى ما نبغى قبل مشرق الصباح.

أحسن الحارس بصدق كلمات يوسف، ورأى اللفتة فى عيون سالومة ومريم، وحانت منه التفاتة سريعة نحو الطفل بين يدي أمه .. ف شعر بسعادة لم يالفاها من قبل . لكنه كان أعز من أن يحقق لهم ما يريدون، فقال هيب يشبه الأسف.

- لكننا لا نملك معانيج أبواب المدينة . أحدها كبيرنا وأبصره، ولن يعود إلا فى الصباح، فيفتح مقلقب الأبواب بنفسه

أخبرت مريم ما سمعت، فتحدت . لا تدري ماذا تفعل،

ونظرت إلى ابنها، وقد بدت الدموع في عينيها، كأنها تستقلهم
راحة لنفسها التي عصفت بها القلق أو كاد، فإذا هو ينظر
إليها كأنه يطمئنها.

وطاف يدهن مريم طائف لذكرى لا تنساها يوم جاءت
قومها، تحمل ابنها، وهم ينظرون إليها، كمن لوئها الإثم ..
يتهمونها بالسوء والفاحشة وخيانة العهد الذي تعاهدته مع
يوسف خطيبها .. فقالوا لها-

- (.. يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا مَرِيًّا)^(١)

- (يَا اَنْتِ هَٰؤُلَاءِ مِمَّا كَانَ اَبُوكَ اَمْرًا سَوِيًّا)^(٢)

- (... وَمَا كَانَتْ اُمَّكَ يَحِيًّا)^(٣)

يومها . اتجهت إلى ابنها، وأشارت إليه، كأنها تستقلهم
جواباً لسؤالهم .. لكنهم أسرعوا يقولون

- (.. كَيْفَ نَكْلُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)^(٤)

ولدهشتهم جميعاً . جاءهم صوت الوليد في مهده يقول
في صوت مسموع واضح:

- (... اِنِّى عِندَ اللّٰهِ اِنْسَانِ الْكِتَابِ وَجَعَلْنِى نَبِيًّا
وَحَقْلْنِى مُبَارَكًا اَيْنَ مَا كُنْتُ وَاَوْصَانِ بِالْعَلَادِ)

(١) سورة مريم الآية (٢٧)

(٢) سورة مريم الآية (٢٨)

(٣) سورة مريم الآية (٢٨)

(٤) سورة مريم الآية (٢٩)

وَالزَّكَاةَ مَا دُمْتَ حَيًّا ۖ وَتَبَرَأَ بِوَالِدَيْهِ إِذَا بَلَغَ الْهُدَىٰ ۚ وَالسَّلَامَ عَلَىٰ يَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ۚ وَتَبَرَأَ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَاسِ ۚ (١)

وما قدرى مريم، وهي في خضم ذكرياتها عن هذا اليوم، إلا أن تختزن طفلها بحضن الأمومة الصانقة، فتحسن بنفحة عطرة تبت في نفسها الطمانينة، وتسرع إليها سالومة، فتأخذ الطفل من بين يديها، وقد غلبها شيء من بكاء، وتقصي به بعيداً .. إلى أحد أبواب المدينة، ويهد الطفل يده، فيلمس مزلاج الباب، فيفتح على مصراعيه!!

يا لرحمة الرب وبركة الصغير. الحراس ينعطون في نوم عميق، وأحد الأبواب مفتوح، والظلام يستقر الكون، والطريق مفتوح أمامهم إلى خارج مدينة بيت لحم، فما عاد يمنعهم شيء من الخروج، وقد تضاعفت الفرحة. حين طنوا ألا رجاء.. فلبصروا في الطريق .. بعيداً .. إلى حيث شاموا، ولسانهم يلهج بالشكر لله.

(١) سورة مريم الايات (٢٠، ٢٢).

(٣)

هذا هيرونس في حيرته يستعيد أحداثا مضت، وحلقاته
لأفكار تندف به في أمواج القلق .. إنه يتذكر ذات يوم، حين
أقبل أحد عرافي قصره، أنه سيولد في بيت لحم من سيكون
سببا في ضياع ملكه وهلاكه .. يومها لم يهتم هيرونس بما
قاله العراف، وكاد أن يفتك به، ثم طرده من قصره، حتى لا
يعاود على مسامعه كلماته!!

ومند أيام، قدم إليه رجال مجوس من المشرق، قالوا فيما
قالوه له: إنهم حضروا من ديارهم إلى فلسطين، يتبعون نجما
يهدىهم الطريق إلى مولود، ولد في بيت لحم لعذراء لم تقترن
برجل، وأن هذا الوليد سيكون نهاية ملكه على يديه، ووعده
إن ساعدتهم في الوصول إلى مكان الطفل أن يأتوا به إليه،
وفعل هيرونس ما طلبوه. بعث معهم رجالا، يحويون أنصاء
مدينة بيت لحم. يفتشون الدور عن هذا الطفل .. لكن الأيام
مضت، وطال به الانتظار دون أن يعود المجوس .. فما
أشقاؤه!!

كان عزيزا على هيرونس في تلك الليلة أن ينام، وقد أهمله
الأمس، ووشيت سحب القلق على وجهه .. كثيرا ما حاول أن
يستجدي النعاس، فلم يستحب لنائته، ولم يخضع لشيطنته،
وهو الذي عنت له الرؤوس مدلة أو تجلة .. خاضع الكرى

جفنيه المسهنتين، فمضى يدع حجرته .. حيثة ودهابا، وقد
ذهب فكره مذاهب شتى . تنبئه بمصير سيئ لا مخرج منه!!
وكان صحيحا وصحبا يدق في عقله، وقد أسلمته مخاوفه
للليل طويل، ليس في سماء فلسطين من هو أشقى منه!!

حتى إذا أثقله القلق، وعصف به الفكر . غفقت عيناه
لحظة، رأى في منامه، كأنه يسير وسط بركة أسنة من
الدماء .. تدوس قدمه أشلاء الضحايا الذين قتلهم، وهم
يطاربونه .. يتعلقون به، يكانون أن يفتكوا به، وإبح بينهم
زوجته مريضة وولديها وصديقيه، وكثيرا من الرجال الذين
أراق دماءهم، وأزهق أرواحهم على مدى سنى حكمه!!

فلما استيقظ من عفوته .. رآه ذلك الظلام الذي يحيطه .
يملا عليه حجرته، دون أن يجد من شموع سوى دبالة تنفخ
لاهثة، فلم يستطع أن يرى ما حوله، فعاوده الغمض، ليرى
نفس ما رآه في حلمه - الدماء والضحايا والأشلاء، مما رآه
هذا إلا رعبا وجوها

فلما كان الصباح من غد، استدعى رجاله، يسألهم أمر
هؤلاء المجوس الذين كانوا يبحثون عن طفل ولد لعذراء . فإنا
لم يموتوا إليه حسب عهدهم له، وقد طال به الانتظار

وجاء صوت أحد رجاله يقول:

- لقد غادروا فلسطين يا مولاي .. عائدتين إلى ديارهم.

قال هيرودس في حلق:

- دون أن يحققوا العهد الذي تعاهدوه معي^{١٤} أن يدلوني على الطفل^{١٥}.

كان الرجال المحبوس، بعد أن رأوا مريم وابنها، وأهدوه هدايا، لبائعا وذهبوا ومرا .. قد فكروا في العودة إلى هيروس ليرشدوه عن مكان الطفل .. لكنهم سمعوا هاتفا يناديهم

- (لا تذهبوا إلى هيروس، لأنه مرمع أن يطلب الصبي ليهلكه . انذهبوا إلى كورك^(١) من الجهة الغربية، لأن جسود هيروس في طريقهم إليكم^(٢)).

من أجل هذا غادر المحبوس فلسطين، عائدين إلى ديارهم في المشرق، دون أن يخبروا هيروس مكان الطفل، مما كان هيروس يسمع ما قاله أحد رجاله، حتى شعر كأنه وسط بحر هائج، تتوالت أمواجه، أو كأنه وسط صحراء واسعة افتتح مناهها، وابتعد ما بين قاصيها وبائبيها، وقد تشابكت دروبها، وتشابهت مسالكها، مما يدري ماذا يفعل.

جمع هيروس كبار قواده ورجال الدين كان يستشيرهم كلما أهمه أمر كل يدلي برأيه، يحاولون أن يخذوا مخرجا لسيدهم مما يتهدده، لكنهم لم يصلوا إلى رأي يعيد إليه الأمان، فما هم مستطيعون أن يبحثوا عن الطفل، وهم عاجزون أن يلحقوا بالرجال المحبوس، لأنهم سلكوا طريقا غير الطرق

(١) كورك جمع كورة أي إقلوب

(٢) إنجيل متى الإصحاح الثاني (١٦)

المقوفة لهم. ويقي هيرودس ينظر إلى حاله، وهم يفكرون،
وكثيرا ما أعلن سخطه وغضبه عليهم بكلمات حادة . ثائرة
.. أو مهددة.

وانتهى النهار، وأوى هيرودس إلى فراشه، وطيف حلمه
يقترأي أمام عيديه، والقلق يلزمه. حتى إذا طاف به طائف
الكرى سمع هاتعا يهتف به

- لخير لك وللك أن تدبح كل أطفال بيت لحم-من هم
دون السنيتين .. حتى تنح هؤلاء الأطفال من أن يكبر أحدهم
ويناصبك العداء.

واستيقظ هيرودس من نومه، وما تزال كلمات الهاتف تدق
سمعه . تأمره أن يدبح الأطفال في بيت لحم، حتى إذا عاوده
الغمض . سمع الهاتف يقول له
- في بيت لحم وما حولها.

كان الصبح قد أسفر، فجمع هيرودس رجاله، وراح يصرح
بهم، كمن أصابته لوثة في عقله. وهم منه دهشون
- ادبحوا كل الأطفال في بيت لحم.

- ١٩

- ممن دون السنيتين عمرا

- ١٩

- بيت لحم وما حولها . حتى نقصى على الطفل الوليد

ذلك الذي زعموا أنه سيكون سببا في صياح ملكي .

وسكت هيرونوس ، كما انما ألقى على عاتقه حملا ينوء به كاهله .

فما أشرقت الشمس .. حتى كان رجال هيرونوس يجوبون بيت لحم وما حولها .. يدخلون الدور بلا طرقات .. بلا استئذان .. يتربصون الأطفال من صور أمهاتهم يذخوبهم ، وتموت البسمة على وجوههم وشفاهم ، وما يزالون في مهدهم ، لم يفتروا إشا ، ولم يرتكبوا معصية ، لم يستمع الجود القبية لصرحات الأطفال ، ولم تأخذهم الشفقة على أمهاتهم اللقاعات الناكلات فما ملكي إلا أن يصرخس ، وهن يتشبثن بأبنائهن في حسرة وآلم . يعتصر الحزن قلوبهن ، فقد شاء هيرونوس للعود الأحصر أن يذبل ، وهو ما يزال يعمو في حضن الحيلة^١ وشاء للأرهاق التي لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح محرقة .. فأبليت .

ولم يكتف رجال هيرونوس بقتل الأطفال^(١) دون السماني . بل عمدوا إلى الأمهات اللائي كن على وشك أن يضعن حملهن ، فبقروا بطونهن ، ليخرجا أحتنهن على بصل السكين^١

فما هي إلا ساعة أو بضع ساعات .. حتى كانت بيت لحم

(١) ما يذكر أن عدد الأطفال الذين قتلوا في هذه المذبحة أكثر من ١٤٠ ألف طفل

وما حولها بركة أسفة من دماء الضحايا الأبرياء، وتناثرت
الأشلاء مرقا في الشوارع، واضطربت الجدران باللون الأحمر
القاني، تعلن عن قسوة الحاكم ووحشية رجاله، وهبت رياح
الظلم عاصفة .. تفتلح الأمس من نفوس الناس الذين باتوا
مهددين بالقتل، ورجال هيرونس يقتحمون الدور . يسلمون
من النساء أبناءهن وشرفهن، ومن الرجال كرامتهم!

وهي وسط هذه الأنواء التي كانت تعيشها بيت لحم، بحث
قوم مريم عنها هي وابنها، فما وجدوهما! ومن يوسف فلم
يعثروا عليه، فهايقنوا أن رحمة الله الواسعة أبعدتهم عن
خطر، وما يملكون إلا أن يوصي بعضهم بعضا بأن يكتفوا
سرههم في صدورهم، وأن يضمنوا جراح نفوسهم بالصبر .. بعد
أن حرمتهم الأقدار من أن يودعوا مريم وابنها، فقد كان
عزاؤهم أنهما ابتعدا عن خطر رجال هيرونس

ولندع الآن بيت لحم وما تعيشه من مجازر وأحداث،
وبعود إلى ركب العائلة المقدسة، لنرى ما كان من أمرهم في
طريقهم إلى مصر

(٤)

انطلق أفراد العائلة المقدسة مريم وابنها ويوسف وسالومة من بيت لحم . يستعملون الطريق إلى حبرون حتى يلقوها مع مشرق النهار، فسعدوا أيها سعادة بالنعمة عن خطر أورشك أن يقع لهم . لم تكن حبرون موصلة أبوابها مثل بيت لحم. ومع ذلك، كان على أفراد الأسرة المقدسة أن يغادروها سريعا إلى خارج فلسطين، فاتجهوا في طريقهم نحو الغرب إلى أقرب نقطة على مشارف الحدود بينها وبين مصر.

ولئن كان أفراد العائلة المقدسة على دراية بذلك الطريق الذي سلكوه ما بين عين كارم وبيت لحم وحبرون . إلا أن الطريق إلى مصر لم يكن مألوفاً لهم، ولم يكن لهم به دراية سابقة، خصوصا وأنه ليس طريقا واحدا، وإنما عدة طرق يسلكها رجال القوافل، ويسير في دروبها السامريون، فاتجهوا إلى ربهم يدعونه أن يوفقهم إلى أيسر هذه الطرق وأكثرها أمنا وسلاما.

وأقبل الليل، وهم ما يزالون في طريقهم^(١) متجهين غربا لا يهدأون إلا لحامسا . حين يستريحون بعض الراحة من عناء الطريق، أو حين ينتهلون إلى الرب بالصلاة والدعاء، وانتهى

(١) كان هذا الطريق يعرف بطريق حورس، أو طريق الشمال

الليل، وأسفر النهار، فكان يوماً جديداً، وعالماً جديداً يروونه لأول مرة .. الصحراء امتدت أمامهم متسعة، لا يصل إليها مدى البصر ومع ذلك فهم ماضون، وقد استراح بالهم، وهذا خاطرهم، لولا ما كان يطوف بخيالهم من ظنون أن يكون أحد رجال هيرودس قد تابعهم في مسيرتهم، لكنهم كانوا يبعدون هذه الظنون عن أذهانهم، وانتهى النهار وأقبل ليل حديد على غير سابقة . فيه أشرق القمر بسوره، فبسط على الكون رداء ضياء، كأنه يحرسهم . يرشدهم إلى الطريق، ينجيهم الأمان والأمال . حتى وصلوا إلى مرة تلك المدينة الجميلة التي تقع على شاطئ البحر، فأسعدهم المكان، وهم يتسمون فيه ربحاً بقية، وتهب عليهم من البحر نسائم رقيقة حانية . تذكرهم بفضل الله.

وفي غرة أبصروا غير بعيد منهم مظلة باسقة، ما تزال بها بعض من شاربها، واستراحوا تحت ظلها، وشربوا من نثر ماء كان على مقربة منها.

كانت مدينة مرة بالنسبة لهم بداية طريق الأمان، وأسعدهم أن يروا الرعاة، وهم يحويون أنباء المنطقة، بحثا عن كلاً لأشيتهم، ورعاة الأغنام وهم يهشون عليها بحصيتهم، لا يريدون بها شراً ولا أدى، لكنهم يبعدونها عن شطط الطريق.

فما استراحوا قليلاً في هذا المكان .. حتى مضوا في طريقهم على مقربة من الساحل مواسين وجوههم غريباً . متجهين إلى مصر، فما وجدوا كثيراً من مشقة أو عناء ..

اليسوا في كنف الرب . ينفذون مشيئته؟ ألبس معهم عيسى روح الله .. حباه الرب بركة منه.

كثيرا ما اتصل بهم -وهم في الطريق- بعض المسافرين ورجال القوافل التجارية، أو هؤلاء الذين يعيشون في المنطقة، فما وجدوا من كل هؤلاء هؤلاء، إلا خيرا أسعدهم، وطمأنهم بما شاءه الرب لهم.

وعلموا فيما علموه ممن اتصلوا بهم في الطريق، وبما كانوا يتذكرونه عن رجال دينهم وشيوخ قومهم . أن هذا الطريق هو الذي سلكه جدّهم إبراهيم وجدّتهم سارة، حين قدّما إلى مصر ذات يوم بعينه، وأنه نفس الطريق الذي سار فيه يعقوب وبنيه . متجهين إلى مصر حين كان يوسف أديبا على خزائن مصر، فتواهم وأكرمهم وفانّهم، وأحرل لهم العطاء، ومنحهم أرضا في شرق مصر . يسكنونها وينعمون فيها .. كم تسعدهم هذه الذكريات، وتطمئن خاطرهم تلك المشاعر الطيبة من الشعب المصري .. ربما تمنوا واشتاقوا أن يسمعوا أخبارا عن أهلهم في فلسطين .. لكن السبل قد تقطعت بينهم .. بعد أن أغلق هيروفس أبواب بيت لحم.

بينما أفراد العائلة المقدسة ماضون في طريقهم . لاحظوا أن رجلين يقبعانهم في الطريق بعد خروجهم من عرة . لم يعارقاهم، ولاحظ كل من سالومة ويوسف أن الرجلين قد اقتريا منهما كثيرا . حتى كانا يلان ماسهما، ونظراتهما محيبة .. تنهى عن شيء بداخلهما .. تلمح عيونهما وسط الظلام .

حتى أدرك كل من سالومة ويوسف أن الرجلين يرغبان بهما
شرا .. يوشك أن يتبنا به .. ترى ما أمر هذين الرجلين؟ ولماذا
تبعنا الأسرة في طريقها؟ سؤال كان يحير سالومة ويوسف ..
بينما كانت مريم مشغولة بأمر ابنها .. كأنها أراد الله أن
يبعد عنها المخاوف .. حتى إذا لاحظت ما بدا على وجه كل
من سالومة ويوسف .. شاركتها ظنوسهما ومخاوفهما .
بإعية الرب أن يحفظهم من محاطر الطريق^(١) .

كان الرجلان لصين .. اعتابا أن يسلبا المسافرين ورجال
القوافل أموالهم ومتاعهم، فما كانا يتشاهدان أفراد الأسرة
المقدسة، حتى ثارت في نفسيهما نوارع الشر، وقررا سرقة ما
معها من متاع وأموال، لكنهما -ولدهشتها- من خلال
متابعتهما .. أدركا أنها أسرة فقيرة، لا تملك من المقاع ما
يفريهما بالسلب .. حتى قال أحدهما للآخر

- إنها صفقة خاسرة - لا تستحق أن نضيع وقتنا فيها.

قال الآخر في إصرار

- لكننا لا نجد أمامنا إلا أن نصرق ما معهم .. لعل في صرة
هذه المرأة ذات القامة المديدة ما يعوضنا عن طول المسير ..
- فلنتركهم، وما شاموا .. فقد نهتدي إلى من نجد لديهم
خبراً.

(١) نرى بعض الروايات أن العائلة المقدسة في طريقها تعرضت
لبعض المحاطر .. حيث قابلهم ثلث يوم أسدان موحشان
ولكنهما ما كانا يلتزمان من الطفل حتى ظهرا ككلمتين البعير، ثم
مضيا في طريقهما بعيدا عنهم.

- لكنى أراها فرصة سانحة يجب ألا أتركها.

وعاد الأول يقول:

- لم تقابل قاعة على مدى تعاريفنا مثل هذه الأسرة التي يبدو على أفرادها أنهم لا يملكون مالا ولا ذهباً ولا مقاعاً، ولغير لنا أن نبتعد عنهم، وتركهم وشأنهم، لنبحث عن صيد آخر يعوضنا الطريق.

لكن اللص الآخر. لم يستمع للكلمات زميله، وأسرع بخطواته، واقترب من يوسف، وسد عليه الطريق، وقال له

- إلى أين؟

ارتبك يوسف وتردد في الإجابة، وضاعت منه الكلمات. وأحسّت مريم كأن خطراً يوشك أن يقع لها وأنها، وطنيت أن يكون الرحلان من جمود هيرودس بعثهما للقبض عليهم، ليعودا بهم إلى ديارهم. لكن الرحلين فيما بدا على مطهرهم ليسا كذلك. كم تخشى مريم على ابنها منهما. إنهما رجلان مثلكم قوّة، وهى وحيدة إلا من شيع عسوف، لا يستطيع الدفاع عن نفسه. حتى هذه المرأة العملاقة سالومة لا قبل لها بمصارعة هذين الرجلين، فهي أعجز من أن تصمد أمامهما.

كان الليل قد انتصف، والطريق طويل موحش، وليس فيه من يستصرخون به. فما تملك مريم إلا أن تحتضن طفلها، وهى تلهج بالدعاء إلى ربها، واهتز قلبها، وقد اقترب منها الرجل الآخر فأصبح الرحلان فى مواجهتهما، ولاحظت أن أحدهما ينظر إلى ابنها بين يديها كمن يتفحصه، وحاول أن

يأخذه منها .. بينما كان الرجل الآخر يهتف بكلمات هزت قلبها:

- إلى أين؟

كان يوسف ما يزال يبحث عن كلمات يقولها .. لكن مريم أسرعته تقول، وقد التصقت بطنعها:

- إننا متجهون إلى مصر

وحانت من أحد اللصين التفاته سريعة وسط الظلام إلى ما بين يدي مريم .. ربما دفعه فضوله إلى ذلك، أولعه حسبه متاعا شيئا تختبئ به، فإذا هو طفل صغير يقترب من عامه الثالث .. ما كاد يكشف عن وجهه، حتى أحس بنور يشرق في حبات نفسه .. نور لم يألوه من قبل، وشعر بسعادة بالغة، فقال لريم في بيرة هادئة

- فإنا مسافران معكم نصحبكم مرتطين إلى مصر

هدأت نفس مريم قليلا، وإن لم يتعد عنها الخوف .. بينما عاد الرجل يقول:

- فهل تأذنون لنا؟! إن الطريق طويل شاق، وأحسب أن في صحبتكم حيرا لكم.

وبينما مضى الجميع في طريقهم . لاحظت مريم أن أحد الرجلين ينظر إلى ابنها نظرات طويلة، كأنها يسعد هذا، وقد علت وجهه فرحة جديدة عليه، وهو يبادل ابنها ابتسامته في مودة وألفة، كأنه قد عاد رجلا غير الذي كان من قبل .. ههوه

وموتة .. حتى أنه كثيراً ما شفى أن يشارك الأسرة صلاتها
ودعاءها الربها حين تكون الصلاة .. سعيدة بهذه الصلوة
كأنها امتلا قلبه بالحب لأفرادها

أعجب من هذا أن مريم لاحظت أن الرجل كثيراً ما كان
يسرع إلى ابنها عيسى بجفف عرقه بتدبيله . عدة مرات كان
الرجل يفعل ذلك، ويسرع بالتدليل إلى حبيه^(١)، وهو يقول
- هذه بركة أعز بها، واحتفظ بها.

- ١٩

- لتكون بكرة طيبة لرحلة مباركة، إننى أشعر الآن كأنى
ألقيت حملاً ثقيلاً كان يتوء به كاهلى.

بعد حين - ابتعد الرجلان .. مودعين .. بينما مضت
العائلة في طريقها .. ينظرون آيات الرب ومظاهر قدرته
وحكمته . يتابعون مشرق النهار حين يكون الصباح سموره،
ومغيب الشمس، حين يصفر وجهها، ثم يكون المساء باهله
الظلم حيناً، أو حين يطلع القمر، فتزدان به السماء فى
أطوارها المختلفة، هلالاً أو بدرًا، فيبدد بنوره ظلام الليل، وتلك
النجوم المتناثرة فى السماء - تطل على الكون يعيونها
الذهبية فى جمال الطبيعة - رقة مياهاها، وصفاء سمائها،

(١) بالغ بعض الرواة فى وصف هذه القصة، فذكروا أن الرجل كان
يسمح مرق الطفل بتدبيله - ثم يعصره فى رجاجة - حتى امتلات
نكس الذي يعنيت من هذا أن يؤكد أن الرجل قد هداه الله، وتاب عن
الجريرة، وذلك ببركة الطفل عيسى

الماء الذي يساق في بعض الوديان الصغيرة، وقد بالنتها مياه الأمطار، وامتدت حولها الحضرة، فبذت كسطور بيضاء في صفحة حصراء . الطيور التي تسبح في فضاء الله الواسع حرة طليقة .. بعيدة عن قبضة حاكم، أو تسلط رحاله . كثيرا ما اضطرت مريم أن تنزل عن حمارها، وهي تختصن طفلها، لتشارك يوسف وسالومة وهم يصعدون الروابي، أو يهبطون الأودية، أو يدورون حول الأكام، وسالومة تحفف عنهم غناء الطريق بقصصها وأحاديثها .. حتى بلغوا مدينة العريش فاستراحوا فيها قليلا، ثم واصلوا المسير مارين بمنطقة الزابيق^(١) حتى وصلوا إلى مدينة الغرما^(٢).

(١) الروابي تقع قرب مدينة العريش بحوالي ٢٧ كم، بها آثار كنيسة قديمة، وسهاريح كانت تستخدم في تغرين المياه في فصل الشتاء.
(٢) الغرما مدينة قديمة تقع على مدخل مصر الشرقي، شمال غرب قرية بالوظة على البحر المتوسط، عرفت بعنة أسماء - يابورج نسبة إلى فرع النيل النيل الذي كان يصب في البحر عند هذه المدينة، والذي يشطه الآن جزء من ترعة بحر مومس.

- برامس أي مدينة الآله آمون الذي كان فرع النيل يسمى باسمه في العصر الفرعوني.
- برما كان اسمها في العصر القبطي.
- الغرما عرفت بهذا الاسم في العصر الإسلامي، وهو مشتق من الاسم القبطي

(٥)

كان على العائلة المقدسة حين وصلوا إلى الفرما أن يستريحوا من عناء السفر الطويل لمدة أيام، قطعوا خلالها أكثر من ٤٠٠ كيلومترا ما بين فلسطين ومصر فجلسوا تحت شجرة صغيرة، يستمتعون بنسماتها الرقيقة، ويهدأون تحت ظلها، ويستريحون فيها ريح ديارهم في عين كارم وبيت لحم وحبرون والخليل، حيث أشجار التين والبريتون والكروم شدي عطير أزهارها.

وإذا كان أفراد العائلة المقدسة قد سعوا بوصولهم إلى مصر فقد كانت قلوبهم ما تزال تنزع إلى أهلهم وديارهم . يتلمسون أخبارا عنهم ..

فبينما هم كذلك في جلستهم .. مر عليهم رجال من قافلة تجارية قادمة من فلسطين، نار بينهم حديث، فعلموا منهم أخبار تلك المنابع التي ارتكبتها رجال هيرويس في بيت لحم وما حولها، وعلموا فيما علموه أن هذه المنابع كانت من أجل طفل ولد لعذراء لم يمسسها بشر، لأن هذا الطفل سيكون سببا في نهاية ملكه . بهذا أنباء أحد عرافي قصوره والرجال المحوس، ولئن حمدت العائلة المقدسة للرب أن أنقذ عيسى من سكين هيرويس، وكفاهم مشقة اللوعة والام العراق، فقد ساءهم ما حاق بأطفال قومهم الذين أراق رجال هيرويس

دماءهم دون أن يلتزموا إنشا. إلا أن الأقدار شاءت لهم أن
يسلط عليهم حاكم ملالم، ولعل يوسف ومريم وسالومة في
دهشتهم وحزبهم لما سمعوا . قد تذكروا ما حدث ذات يوم
بعيد . حين عصفت العظم فرعون مصر، مقام بديع كثير من
أطفال بني إسرائيل بعد أن أحضره أحد رجاله أن نهاية ملكه
ستكون على يد طفل عيراني نفس الظروف التي نعيشها
بيت لحم، عاشها بنو إسرائيل من قبل، وإنا كان الله قد
حمى موسى من سكن فرعون مصر، وأبقى عليه، ليكون نبيا،
ولينقذ قومه، فهو حافظ لعيسى من سكن هيرودس

وعلمت العائلة المقدسة فيما علمته من رجال القواصل
القادمين من فلسطين والذين مروا بهم في الطريق. أن رجال
هيرودس، قد نجحوا نبي الله زكريا عند هبكل الرب، حيث كان
يقدم صلواته ويرتل أذنيه عجزوا عن الوصول إلى أبيه
بحيى الذي ولد من أنوين شيوخ طاعين في السن . معجزة
أجراها الله لبيان قدرته ومشيئته .. كما عجز رجال هيرودس
عن الوصول إلى الیصابات^(١) فانتقموا من زكريا . كم
حزبت مريم لما أصاب زكريا الذي رعاها في طفولتها
وصباها، وكان لها نعم الأب والمعلم، وبم يملك يوسف إلا أن
يشاركها أحزانها، ويدعو الله أن ينقذ يحيى من سكن
هيرودس

(١) كانت الیصابات قد هربت بابها إلى البادية، خوفا عليه من
رجال هيرودس.

وبار بدهن مريم نكريات كثيرة، عاشت أحداثها منذ وضع
سدين .. هي الآن حاضرة بين يديها، إنها تتذكر يوم أنبأها
ملاك الرب نبأ حمل الأصابات بآين لها هي شيخوختها^(١)
.. يومها تركت مريم الناصرة، وجاءت إلى عين كارم، لئبارك
لقربنتها فضل الله عليها، حين استجاب لدعائها وزوجها بعد
طول انتظار

وأيقظ يوسف مريم من تفكيرها، وهو يقول

- عما قليل نعود إلى ديارنا يا مريم .. نأمنو حراح قومنا ..
لعل الله يعوضهم عن مارقوا من أحياء، كانوا يصمون
فيهم الآمال، فاحتسبواهم عنه.

قالت مريم.

- إنه الحد، وإن يطول بنا انتظاره، وبرحو أن نطمئن على
يحيى.

- إن يحيى بضعة من زكريا . الله أرحم به من يفتلدها
هيرويس منه.

وما يملكون، وهم في آمالهم وظنونهم، وخوفهم ولهمتهم .
إلا أن يسودوا بربهم يصلون له .. يسألونه أن تحمل الأيام
القادمة ما يربح حواطرهم. ويعيد البسمة إلى شفاههم.
والفرحة إلى وجوههم ..

(١) إنجيل متى الإصحاح الأول (٢٦، ٢٧)

.. حتى إذا أصابوا بعض الراحة من عناء التفكير ومشقة السفر .. غادروا القرما .. ماضين في طريقهم نحو الغرب متجهين إلى مصر

كانت بواكير الربيع قد بدت على وجه الأرض، فاكثرت مساحات واسعة من الطريق بالخضرة، وأورقت الأشجار المتناثرة أو المتباعدة، وهبت الريحات رقيقة حانية على وجه الكون .. منعشة على وجه الأسرة المقدسة، كأنها دعوة ترحيب من مصر للقادمين إليها، ليدخلوها إن شاء الله آمين، وكأن الأيدي المصرية تصاح أفراد العائلة المقدسة فرحة بمقدمهم .. تعرش لهم الأرض خضرة، وتتلقاهم بالحبة، فكان عليهم أن يخذوا السير .. تسابق الفرحة خطواتهم .. حتى وصلوا مدينة القنطرة^(١).

وهي القنطرة .. قابلهم أحد المصريين، هنصمهم بالاتجاه نحو الجنوب، ليتفادوا المنطقة الواسعة من المياه والمستنقعات التي تشغلها بحيرة عظيمة (بحيرة المزالة حالياً) حتى لا تعوقهم عن المضي في طريقهم، فعملوا، حتى إذا وصلوا إلى المنطقة التي تقع شمال بحيرة التماسح حالياً،

(١) تقع القنطرة شرق بحيرة المزالة - جزؤها الشرقي الآن، يقع شرق قناة السويس، وغربها غرب قناة السويس. مع ملاحظة أن قناة السويس، لم تكن موجودة في هذه الفترة، ومن واقع الدراسات الجغرافية لهذه المنطقة ثبت أنه كان يوجد فرع النيل قديم هو الفرع الباليويزي التي كانت تقع عليه مدينة باليوزم أو القرما حالياً، وهو أحد الفروع الستة للنيل التي كانت تصب في البحر المتوسط

عابروا الانحلال نحو الغرب، وسلكوا طريقا أكثر أمنا، وأبصر
 من الطرق الأخرى التى تكتنفها الرمال والأشواك . هو
 الطريق الذى كان يشغله وادى الطميلات^(١) .. حتى وصلوا
 مدينة بويسطة (تل بسطة) قرب الزقازيق، فهدأوا تحت
 إحدى الأشجار فى منطقة بعيدة عن المدينة، فى انتظار ما
 تسعه لهم الأيام القادمة.

(١) وادى الطميلات واد قديم كان مرعا من مروج النيل فى النلتا
 القديمة، ثم ردمته الرمال بفعل عوامل التعرية، وتعرف هذه المنطقة
 باسم الصالعية حاليا، يشغله الآن جزء من ترمة الإسماعيلية.

(٦)

كان وصول العائلة المقدسة إلى تل بسطة^(١) في ٢٤
يونس^(٢)، وكان الجو حاراً قاططاً، فاختاروا مكاناً بعيداً عن
المدينة، في طرف من أطرافها، وجلسوا تحت إحدى الأشجار
بأت الظلال النازحة. فقد أجهدهم المسير وشدة الحرارة، وما
تجشموه من مشاق، وما ألقفهم من أحبار عن أهلهم وديارهم،
وعلى النوم كلا من يوسف ومريم، بينما ظلت مريم
مستيقظة تحتمل أنها، وترعى شئونه، وتنتظر إلى الطريق
في ترقب وخوف، وأحست مريم بالقلب، وأدركت بشفاقية
أمومتها أن أنها -بضعة منها- قد أصابه ما أصابها،
فقامت إلى متاعها تبحث عن ماء لكنهن وجدت وعاء
خالياً حتى من قطرة واحدة. لقد نعد كل ما فيه بسبب طول
الرحلة وشدة الحرارة، فراحب تتلفت حولها، عليها تجد مصدر
ماء تروى به طمأ آبئها، لكن المسافات باعدت بينها وبين ما

(١) تل بسطة أو بوسطة نسبة إلى الإلهة باستت (القطعة السوداء) تقع
الآن قرب الرقاريق على بعد ١٠٠ كم من القاهرة، وهي أنقاض
مدينة قديمة كان اسمها بوسيس - أنشأها ملوك الأسرة ٢٢، وعلى
مقربة منها كانت توجد مدينة أواريس عاصمة الإكسوس من
أقارها معبد قديم للإلهة باستت.

(٢) وفي هذا اليوم يحتفل المسيحيون بوصول العائلة المقدسة إلى مصر،
وهو يوافق اليوم الأول من شهر يونية من كل عام

تبغى، وفكرت أن توقظ سالومة أو يوسف ليبحث أحدهما عن مصدر ماء هي المدينة، فقد حفر حلقها، وتبست الكلمات على شفثيها، فما تستطيع أن تتكلم . كم قننت سخاية . تكون بشير مطر ينحها بعض ماء!! ولكن السماء حالية من سخابة!!

كانت لحظات قاسية، عاشتها مريم، وهي تحتضن ابنها بيدبها حينا، وحينا آخر بعيدبها، ربما تستطيع هي أن تتحمل قسوة الظما، ولكن ابنها ما يزال عوبا أحضر أعجز من يقاوم الظما، وعاونتها ذكريات ذلك اليوم القريب، يوم جاءها المصاص عند جدع نخلة، وقد أصابها الظما، قدمت ريبها، فجعل لها من تحتها سريرا، شربت منه، وعسلت ابنها، فهل يكون الرب بها رحيمًا كما عودها، فيهدبها إلى ما تطفى به لهفتها . تعنو وتروح، وهي تزنو إلى ما حولها . يتدبها البصر إلى أبعد ما ترى .. ربما فكرت أن تغادر مكانها لتبحث عن ماء هي المدينة، لكن يوسف وسالومة ما زالا هي نومهما، وهي لا تستطيع أن تترك ابنها وحده في هذا المكان المتعزل . كان عيسى قد جلس على مقربة من أمه .. ينظر إليها، كأنه يطمئننها، وهي متجهة بنظرها إلى ما حولها حينا، وإلى السماء حينا آخر .. تنأى ريبها . حتى إذا أصابها بعض من يائر . وأرهقها الظفر .. عادت إلى ابنها، كأنها تأسف لما آل إليه أمرها، فإذا هو ممسك بقلعة من حديد . لا تدري، كيف وصلت إلى يديه، وإذا هو يندق بها الأرض كمن يلهو بها، فاعمل بها حجرة صغيرة، ولدهشة مريم، وهي ترى

الماء تتدفق من هذه الحفرة .. هادئة .. ثم غريرة، ميله عذبة صافية، فراحت تغترف منها بكفها، وتسرع إلى ابنها لتسقيه، ثم تشرب هي .. سحينة بهذا الخير الوفير الذي أماء الله به عليها. واستيقظت سالومة، وبعدها استيقظ يوسف، ليشارك مريم سعادتها، وقد أدرك الجميع فضل الله عليهم ببركة الطفل عيسى، ولو نظرت مريم بظهر العيب، وكيف عنها حجاب الزمن، لعلمت أن ابنها هنا سيكون رسول ربه إلى قومها، ليعيدهم إلى تعاليم ربه، وأن دعوته دعوة سلام ومحبة ستنتشر في ربوع مصر.

ولابد أن العائلة المقدسة، وهي في مسعاتها بنعمة الله عليها. قد تذكرت ذات يوم بعيد، ما كان من أمر هاجر المصرية زوج جدهم إبراهيم الحليل حين اصطحبها وأنها إسماعيل، ومضى بهما إلى بركة بعيدة .. في مكة .. حيث لا ماء ولا حياة .. حتى إذا أدركت هاجر ظمأ وحيدها . أسرعت إلى سقاء الماء، فوجدته جالياً من قطرة ماء^١ وراعها ابنها وهو يضرب الفراخ بقدميه . يصرخ من شدة العطش، فراحت تبحث له عن ماء، فما وجدت حولها إلا الرمال والصخور والحصباء، وما عرفت عن هذه أنها تبض ماء يومها صعدت إلى الصفا تنأخ ربه، فإذا هي ترى لجة ماء عند المروة، فهزولت إليها مسرعة، مما تكاد تصلها حتى أدركت أن ما رآته ليس إلا سراباً يحسبه الظمان ماء، وتجرى بين الصفا والمروة مسرعة حيناً، وبطيئة حيناً آخر عدة أشواط . حتى إذا أصابها اليأس .. عادت إلى ابنها تنظر قضاء الله فيه، فإذا

هى تجد بئر ماء عند قدميه، فاشترت منها ما شاءت، ورويت ظمأ ابنها .. إنها نفس الظروف التى عاشتها هاجر تعيشها اليوم مريم .. وليكن ولدها عيسى ذكرى لجده إبراهيم، وصنوا لإسماعيل.

وبقيت العائلة المقدسة تحت الشجرة .. ننعم بما آهأ الله به عليهم من رزق .. أسنغه عليهم، وعلى غيرهم ممن كانوا يهرون بهذه المنطقة، فيحدثون فى ماء النبع ما يعيد العرجة إلى نعوسهم، وكثيرا ما كانت سالومة أو يوسف يذهب أحدهما إلى المدينة لقضاء ما يحتاجون إليه.

وفى أحد الأيام . بينما أفراد العائلة قد هادأوا تحت ظل الشجرة - مؤ عليهم رجل اسمه قلوب، ساء أن يجدهم فى هذا العراء بعيدا عن المدينة، ليس معهم ما يكفيهم من مؤونة، ولا ما يستطيعون به أن يدعوا عن أنفسهم الحر أو البرد، فأحس فى قلبه حبا لهم، وعطفا عليهم، وسعد بقلائهم، سعانة لم يألفها من قبل، وكانت سعانة أكبر بالنظر إلى الطفل عيسى، وهو يتسم له فى إشراق ومؤونة .. ملأ قلبه نورا وأضاء جوانحه، ومريم التى تشدوا انتمسامة الرضا على وجهها المضىء، فأصرَّ الرجل على اصطحاب العائلة إلى داره، ليكويوا ضيوفا تحت رعايته، ولينعموا من نعمه.

وهكذا قدر للعائلة المقدسة أن تعيش فى كنف رجل مصرى كريم، ليأنسوا بأسرته التى يظللها الوئام والمحبة كان قلوب رجلا مبسورا - منحه الله بسطة فى الرزق.

ومنعة بين أهله وقومه في قريته، وكانت ناره ملجأ للكثيرين من الفقراء والمساكين وطلبي العاجات .. يلجأ إليها الجميع، فيجدون عند صاحبها ما يحقق لهم أمالهم، كما أسبح الله عليه من نعمائه، ليستمتع بها المحتاجون، كما كانت ناره كعبة يقد إليها الكثيرون من أهل قريته والقرى المجاورة، للتشاور فيما يعن لهم من شئون حياتهم، وحل ما غمض عليهم من مشكلات .. يجدون عند الرجل من النصائح ما يصلح حالهم، ويعيد إلى الشخصيات منهم التسامح والمحبة، فقد كان شبيها حكيما أنصحته الثعالب، وعرك كثيرا من السنين، وزادت البركة في نار قلوب بفضل العائلة المقدسة، ومعها زاد عدد الوافدين إليها من المساكين والمحتاجين.

لكن أمرا ما وقع .. أحزن الرجل كثيرا ..

كان قلوب يحتفظ في خزانة ناره ببعض المال .. ربما كان خاصا به، أو أمانات أودعها عنده الوائفون فيه . وكانت هذه الخزانة في جدار عال فوق كوة إحدى حصرات الدار . بعيدا عن الأيدي أن تصلها . لكن الرجل استيقظ ذات صباح، فإذا ماله قد سرق من الخزانة، وأدهشه وأحزبه أن يكون للنص قدرة على الوصول إلى هذا المكان العالي، وكيف يحدث له هذا، وهو لم يدخل على أحد بالمساعدة، وخربت مريم ويوسف لما أصاب الرجل الكريم، وساءلها أن يحدث له ذلك، وهما في صباهته ولم يحدثا منه إلا كل حب وكرم.

ولج الطفل عيسى ما بدا على وجه أمه من حزن لما أصاب

الرجل، وقد انسحبت نظراتها إليه، كأنها تستلهم منه سر ما حدث، فقال لها عيسى:

- أبحرنك أمر الرجل يا أماء؟

- كيف لا وقد أكرم الرجل وعادتنا، وما وجدنا منه ومن أهله إلا كل خير

- فهل تسعدين إن تكشفت الحقيقة، وعرف الرجل من سرقوه؟

- كم يسعدني هذا لكن . كيف السبيل إلى ذلك، ورواد الدار كثيرون، وليس فيهم من يستطيع الوثوب إلى هذا المكان حيث أموال الرجل؟

قال عيسى في ثقة.

- إن شاء الرجل أن يعرف من سرقه، فليجمع في داره كل الفقراء والمساكين الذين زاروه بالأمس.

وبهشت مريم لما يقوله عيسى . ولكنها لا تملك إلا أن تطلب من قلوب أن يفعل، فلعل بركة أنها تكون طريقا إلى معرفة السارق، فلما أصبح الصبح من غد . اجتمع الفقراء والمساكين في الدار . وأقبل عيسى ينظر إليهم واحدا واحدا بعد الآخر، يتفحص وجوههم، ثم اقترب من رجلين أحدهما أعمى والآخر مقعد، وأمر الأعمى أن يحمل المقعد على كتفيه حتى إذا فعل طلب منه أن ينهض مني بحمله لكن الأعمى، وقد أهزعه الأمر قال:

- أنا رجل ضعيف لا أستطيع النهوض، وموق كتنفى هنا
الحبل الثقيل الذي ينوء به كاهلي.

لكنه تحت إصرار الحاضرين .. نهض واقفا .. حتى استوى
من يحملة، فكان رأس المقعد في مواجهة كوة الحجرة، والتي
تطلوها خزائن صاحب النار. قال عيسى للملعد:

- فمد يلك أيها الرجل كما فعلت بالأمس.

ثم نظر عيسى إلى قلوب والحاضرين معه، وقد أجمعتهم
المفاجأة، وقال له

- هكذا فعل الاثنان بالأمس، وسرقا ما في الخزينة.

وأعاد اللصان المال لصاحبه بين دهشة الحاضرين
وأعجابهم ببركة الطفل الصغير، وكان لهذا الحادث وقع كبير
في عيون كثير من يقطنون هذه المنطقة . فزادت محبة
الناس للعائلة المقدسة، وخاصة الطفل عيسى الذي كانوا
يطلقون عليه الطفل العبراني، بعد أن علموا أنه وأسرتة من
فلسطين، وسعدت مريم ما فعله ابنها، وأرباب قلوب تسكا
ببقاء العائلة المقدسة صيوها في ناره . كثيرا ما حاولت مريم
أن يغادروا تل بسطة إلى مكان آخر، ولكن قلوب كان يرفض
بالإصرار، ويصر على بقائهم سعيدا بهم، وهم أكثر سعادة بما
يحمونه من محبة وأمان، كأن الله قد عوضهم عن أهلهم بحير
منهم، وأمنهم من خوف . وأمتلأت قلوبهم رها، فما يكفون
عن الصلاة لربهم

حتى كان ذات يوم ..

أشرق الكون بنور من الله على مدينة بوبسطة، فمسح عنها غبار الظلام، وألبسها ثوبا قصيا جميلا، فما هي إلا ساعة أو بعصها . حتى ازدحم المعبد بالكثير من الناس الذين توافدوا إليه من المدينة ومن القرى المحيطة بها، فقد كان اليوم هو أحد الأعياد الدينية التي يحتفل فيها المصريون بآلهتهم، ونمازيت هي المعبد شاتيل كثيرة للقطعة السوداء التي كان أهل المدينة يقدمون لها، ويحتفلون بها، ويقدمون لها القرابين، ويقبضون الصلوات، وعلت في المعبد أصوات الترانيل والصوات وطاللي الزكة هكذا اعتاد المصريون أن يفعلوا .. لكل مدينة أو منطقة إله أو إلهة .. تصد هي صورة شاتل.

في هذا اليوم - لأمر شاه الرب- خرجت مريم تصحب عيسى ربما كان ذلك للفتنة، أو للتعرف على معالم المدينة، أو لعله كان لقضاء بعض الحاجات للعائلة، فشاهدت الجموع تتوافد إلى المعبد، ودفعها حب الاستطلاع أن ترى ما يفعله المصريون في عيدهم . كانت تسك في يدها ابنها، فما كادت تدخل معه المعبد . حتى تماقظت شاتيل القطعة السوداء، وهوت في صحن المعبد تكسرت، ونمازيت أشلاؤها، واختلطت بالنبيذ المسفوح ولجوج القرابين ودمائها، وهرج الناس مما شاهدوا، وقد أدهشتهم المعالجة، فليس لهم ما حدث عهد، وما ألفوا في آلهتهم إلا الصمود للعواصف والرياح العاتية، وأسرع الكثير منهم يقادرون المعبد، وقد ملاهم النعرا

وبلغ الخبز حاكم المدينة، فاستندت به المحاربه وأحرته
 أن تتسلط ألهة مدينته دون غيرها من الآلهة الأخرى .. لابد
 أن الآلهة غير راضية عنه، رغم ما قدم لها من القرابين، مما
 دفعه إلى أن يذهب هو ومن حوله في هذا الأمر مذاهب شتى
 لأسباب ما حدث .. حتى كاد بعضهم يفقدون الثقة بالهتهم
 التي تسببت دون أن تحمي نفسها، وكان على حاكم المدينة
 أن يبحث عن أسباب ذلك، فقد كان يخشى أن يصل الخبر
 إلى الوالي الروماني، وما يدرى ماذا يكون مصيره .. فاستدعى
 كهنة المعبد، فأتوا إليه مسرعين . تسبقهم مخاوفهم، ويبدو
 على وجوههم الحيرة .. وكان أحدهم يراقب مدخل باب المعبد
 في ذلك اليوم، فأنبأ حاكم المدينة أن ما حدث كان بسبب
 دخول الطفل العبراني القادم من فلسطين، والذي يعيش مع
 أسرته في بيت قلوب، وراح الكاهن يحكي لحاكم المدينة بما
 يعرفه عن العبرانيين الذين يؤمنون بشريعة موسى في وجود
 إله واحد، وينكرون الآلهة المصرية، وما كاد الكاهن يلقي
 لحاكم المدينة بما لديه من معلومات .. مؤكداً أن ذلك بسبب
 الطفل، حتى أمر بالقبض على العائلة كلها، والعنك بهذا
 الطفل الذي أصاع على المصريين بهجة عيدهم، ونشر الضوف
 بين الناس، وشتت أفكارهم، وعلم قلوب ما انتسوا حاكم
 المدينة، وخشى ومن حوله أن يصل الخبر إلى الوالي الروماني،
 فقد كانت الصلة بين مصر وفلسطين وثيقة في تلك الأيام.
 كلاهما يحرص للسيطرة الرومانية بعد هزيمة الإغريق، وإذا
 كان هيروكليس في فلسطين يخصع لشهنة سيده أغسطس

قيصر رومان، فقد كان تطهيره (لوارنبوس) في مصر يأتيهم بأوامر أغسطس هو الآخر فكلوا الحاكمين تربطهما صلة، وتجمعها منعمة أو مصلحة مشتركة، وكل منهما يسعى أن يحقق للأخر ما يطلبه، وليس من الصعب على هيرودس، وقد أحفده أن يفلت منه أفراد العائلة أن يطلب من وإلى مصر القبض على الطفل، وإعادته إلى فلسطين، ليقطن منه.

كل هذه المخاوف . دفعت قلوب -الرجل الطيب الكريم- أن يسرع إلى دارة، فيخبر مريم ويوسف، والألم يعتصر قلبه .. والحرن يهرفه، وأن عليهم للحفاظ على حياة الطفل أن يغادروا تل بسطة.

فما كانت الشمس تسمى إلى مغربها، وجن الليل، ونشر أريدته السوداء على المدينة . إلا من نقاط نور ضعيفة ترسلها النجوم، وفرض الهدوء والصمت على كل شيء، واضطر الناس إلى مصالحتهم . حتى غابت العائلة المقدسة نارا قلوب^(١) بعد أن باركها عيسى ودعا لصاحبها، وقد حمدوا للرجل صنيعه وشكروا له فضله، ثم كان الوداع بين أفراد الأسرتين لم يستطيعوا أن يمسكوا دموعهم في مآقيهم، وهم يحتسبون مخاوفهم وأحزانهم، فما كان هذا الغراق عن رغبة أحد منهم، ولكنه الإذعان لشئنة شاءها الرب.

وهكذا مصت العائلة المقدسة مغادرة تل بسطة ليرودا موردا آخر من أرض مصر الواسعة

(١) على انقصاص هذه الدار أقيمت كنيسة العذراء مريم التي ما تزال باقية حتى الآن في تل بسطة.

(٧)

مضت العائلة المقدسة في طريقها . نحو الجنوب .
يقدون الخطى خوفا من أن يلحق بهم رجال حاكم مدينة
تل بسطة، حتى وصلوا إلى (المحمة^(١)) ولكنهم لم يكتفوا
فيها طويلا، فغادروها . متجهين نحو الشمال الشرقي،
يوافلون السير سهارا والسرى لبالا، حتى وصلوا إلى مدينة
بليس^(٢)، وكان التعب قد بلغ بهم أشده، فاستراحوا تحت
شجرة.

(١) المحمة هي الآن مسطرد، وتبعد عن وسط القاهرة بحوالى ١٠ كم.
وكلمة المحمة تعنى مكان الاستحمام، ويرجع سبب تسميتها بهذا
الاسم إلى أن العائلة المقدسة في طريق عودتها إلى فلسطين، مرت
مرة ثانية بهذا المكان حيث أصبح الله على يد الطاهر عيسى من
ماء ما تزال البية تقديق منها حتى الآن، ومن هذه البياء استنعم
الطاهر، وعملت أمه ملابس . راجع الفصل (١٦) من هذا الكتاب
(٢) بليس تفتح الباء أو صمها من الحرف القديسة (بريس) كانت حبرا
من أرض جاسان (حوش) النسي سككها العسرايون اسمها
بالقبطية Bellbes وهي الآن أحد مراكز محافظة الشرقية، تبعد عن
القاهرة حوالى ٥٥ كم، وكانت تقع على الطريق بين فلسطين ومدينة
عين شمس، ومعروف أن هذه المدينة مز بها عمرو بن العاص عند
منحه لصر

كانت هذه الشجرة^(١) كبيرة وعالية .. امتدت أغصانها وتشابكت فروعها، واكثُرَت بأوراقها، فحجبَت أشعة الشمس عما تحتهَا، وكان الوقت صيفاً قانطاً، فاستبدت السالومة إلى حدع الشجرة، وتوَمَّد يوسف عصاه وبعض مقاعه، وراح الاثنان في نوم استسما له .. يطلبان الراحة بينما بقيت مريم نعنَى بطلعها تصَّه إلى صدرها .. تُشبعه من حنان أمومتها بقدر ما منحها الله ترنو بفطرات الأسانى إلى مستقبل تريد أن تعيشه.

صور كثيرة لأحداث عاشتها مريم نراهن أمامها في تلك اللحظات يسعدن بعضها ويقلقها البعض حتى إذا أحدها ملول التفكير لعب العوض بعينيهَا أَقْطَح لحظة من يقطتها، ففقت عيناها لحظة -على غير رعية منها- فلما استيقظت من غفوتها، ألقت بطلعها في لهفة على أنسها .. تدفعها عاطفة الأمومة التي تملأ صدرها، فإذا هو يلعب حولها، وقد راح يحط الأرض بقطعة من عصا حطوطاً على شكل دائرة . كأنه يبحث فيها عن بدايتها ونهايتها، لكنها ما كادت تفحصه حتى أدركت أنه قد فقد حذاءه.

(١) هذه الشجرة عرفت فيما بعد بشجرة العدراء مريم، رآها بابليون في حلفته على مصر (١٧٩٨-١٨٠٦) وأراد قطعها وإرسالها إلى فرنسا، وما كاد أحد رجاله بصرب حدع الشجرة جعله، حتى دربت منها دماء عريضة، فاضطر بابليون إلى الإبقاء عليها في مكانه، وقد بقيت هذه الشجرة حتى سقطت سنة ١٨٥٠ .

فأسرعت إلى متاع العائلة، فهذا مبعثرا .. قد عيبت به أحد
البارين، أملا أن يسرق منه شيئا، فلم يجد ما يستحق السرقة
فأحد حذاء الطفل .. كم أحرثها ذلك كثيرا^(١) واستيقظ
يوسف وسالومة ليشاركنا مريم أفكارها، وليطمئنئها يوسف،
ويهدئ من مخاوفها.

وبقيت العائلة المقدسة تحت الشجرة عدة أيام، وكانت
بينهم أحاديث كثيرة، وذكريات عن تلك المنطقة التي يقيمون
فيها، والتي كانت تعرف فيما مضى بأرض جاسان .. حيث
أنزل نبي الله يوسف الصديق أباه يعقوب وأخوته هذه
المنطقة، لتكون موئلا للعبرانيين الذين تكاثروعددهم .. ولابد
أن الحديث قد طال بهم، ليتذكروا ما كان من أمر مولد
موسى، وكيف أُلقيت به أمه في اليم، وألقطه آل فرعون،
ليكون إليهم فيما بعد رسولا .. يدعوهم إلى التوحيد، وهؤلاء
السحرة الذين فشلوا في مواجهة معجزة موسى .. حين ألقى
عصاه، فإذا هي حية تلقعت ما حيل إليهم من حبالهم أنها
تسمى .. هكذا طابت بهم الأحاديث، وهم تحت الشجرة هي
بلديس.

وعلم أهل بلديس والقرى المحيطة بها بوجود العائلة
المقدسة بينهم، وكانت أخبار ما حدث هي معبد تل بسيطة

(١) نرى بعض الروايات أن مريم بكث كثيرا، ونساقطت دموعها
حريرة، فكان عيسى يحول على الدموع بعضاء هي دائرة يقول هنا
سيكون بنو ماء يشفى المرضى.

وبار قلوبهم، وبركات الطفل العبراني كما كانوا يطلقون عليه،
قد وصلت إلى الناس، فتزاحموا عند الشجرة . يريسون أن
يسعدوا ببركات الطفل، ويلقوا العائلة المقدسة .. وحشيت
مريم ويوسف أن يصل الحبر إلى حاكم مدينة تل بسطة، وكان
ما يزال يبحث عنهم، لذلك انتهزت العائلة المقدسة الانحسام
الشديد، واستحبوا متعديين عن بلديس . متجهين نحو
الضلال الغربي في طريقهم، حتى وصلوا إلى مدينة منية
سموود.

(٨)

كتب الله في لوح مقاديره على كل إنسان خطوه وخطاه التي يوضيها في دروب الحياة، منذ خروجه من بطن أمه، حتى يتوسد لحدته، وليست قيمة هذه الخطوات بعددها أو باتساعها، لكنها بقدر ما اكتسبه صلاحها من معرفة، وما أصاب منه الآخرون من سعادة وأمن وسلام، فكلم من خطوات خطاها أصحابها على أديم الثرى، فما أفادوا، وما استفادوا منها.

ولم تكن رحلة العائلة المقدسة في أرض مصر مجرد خطوات خطوها للترويه أو لفائدة ذاتية لهم، لكنها كانت خطوات بمشيئة الله . كتبها عليهم، لحير البشرية، فقد كانت نهاية طريق نحو الهداية، وخروج الإنسان من جهالة الشرك والعبودية للنشئ، إلى التحرر من الرق، والدعوة إلى السلام والمحبة، والعودة إلى عبادة الخالق وحده الذي بيده الحياة، والذي يستحق أن يُعبد دون السادة الحكام

ربما كانت هذه الخطوات هروبا من بطش هيروفس، وبتحاة من شرانتواه نحو الطفل الصغير عيسى، ورحمة بأمه، فكانت كلمات الرب التي أمرتهم بالرحيل إلى مصر.. حيث يجدون الأمان والسلامة.

كان من الممكن للعائلة المقدسة، حين وصلت إلى مصر أن

تقيم في مكان ما.. لا تريحه، حتى ينتهي الخطن للعود إلى
هلسطين، لكن الله أراد لعيسى أن تفقد خطواته، وتتبعه به
المسافات، وتتسع المساحات. تستقر العائلة في بلدة أو
مدينة، ثم يغادرونها إلى غيرها، لتعم البركة وتكبر.

من أجل هذا. شاء الله للعائلة المقدسة أن تغادر بلديس،
وتتبعهم الخطوات نحو الشمال، ليصلوا إلى مدينة صغيرة
هي بيت حناح (معية سمود^(١)) مارين في طريقهم بالعديد
من القرى والمدن القديمة. حتى إذا وصلوا إلى هناك
جلسوا -كما تعودوا- إلى ظل إحدى الأشجار، مما كان لهم
مقام يلحأون إليه إلا ظلال الشجرة، فيما عدا بعض الأماكن
التي استضيفوا فيها، كما حدث في تل بسطة، أو احتبئوا
في كهوفها، كما سيأتي بعد.

ما كاد أفراد العائلة المقدسة يجلسون تحت ظل
الشجرة^(٢) حتى شعروا بنسمات رقيقة تفسح بكعها الندى
على نفوسهم المتعبة بعد رحلة طويلة، مما هي إلا ساعة أو
بعض الساعة، حتى استعادوا راحتهم وأمنهم، ولأن النبل
يقترّب من هذه المدينة، فقد كانت فرصة لهم ليروه، وليعموا
سائه العبد الذي يذكرهم بيلاه شهر الشريعة (الأردن) في

(١) معية سمود هي الآن إحدى القرى التابعة لمركز أحا بمحافظة
الدقهلية، تبعد عن القاهرة بحوالى ١٠٠ كم، ويقترّب موقعها من شهر
النبل (فرع دمياط حاليا)

(٢) بيت مكانها كنيسة أساتوب التي خرج إليها المسيحيون يوم ٢٦
يولية من كل عام.

فلسطين، ولا شك أنهم، وهم في طريقهم ما بين بلييس ومنية
سنود التي هي جزء من الغلثاء، قد مروا على كثير من مظاهر
الحياة والجمال في مصر

هذه حنات وارفة، وحقول حضراء .. امتدت على مدى ما
تصل إليه أبصارهم تروى من مياه النيل الذي حبا الله به
مصر، ليكون رسول رجاء، وسبب استمرار الحياة على أرضها
والروريق والمراكب بأشعتها كلجنة طيور بيضاء.

والحدائق المنصورة على ضفتي النيل التي تذكرهم بحدائق
النيل والزيتون والكروم في ديارهم.

والنبت الأخضر وهو يشق الأرض السوداء في إصرار،
ليخرج إلى الحياة، وسنايل القمح التي تتطاول إلى السماء
كأنها ضعائر مجدولة من الذهب، وأصوات العصافير وهي
تشكو كأنها تشكر الله على ما وهبها من أجنة . تخلق بها
هرة في السماء الواسعة.

وجداول الماء تنساب وسط الحقول كخواشي قصبة لسط
حصراء

وجمال الطبيعة في أوقات الأمائل والأماسي، ومطلع
الشمس حين يكون الصبح، ومغربها حين يكون المساء، وهي
تغرب في جلال، ولم يبق من أشعتها إلا غر تلعب على سعف
النخيل ونواكب الأشجار

كل هذه الصور .. كانت كتابا مفتوحا أمام عيني الطفل

عيسى، يقرأ فيه دليل قدرة الله ويديع صغره.

كم سعد أفراد العائلة المقدسة بالعنيتات الصغيرة، وهن
باهيات إلى النيل أو أحد حدائقه .. يملأن جزاهن .. تشين
في حطرات فساح، أو يسمعن سعي النسيم في رفته، مجلوة
وجوههن كوجه الريح . على شفاههن ابتسامة مضئنة تغتر
ثغورهن امتزار الأكمام عن الأزهار تلمع في عيونهن الكحلة
آمال عريضة، نقرامى أمامهن . يتمنين تحفيظها في غد أكثر
إشراقا

ومظاهر السعادة التي اعتادها المصريون في أمراحهم ..
العنارى .. وقد بنا ورد الصبا في خدودهن، وأكفهن الخضوية
بالحناء، وهن يصفقن ويغنين للغروبين

والفلاحين، وهم يسرعون قبل مشرق الشمس إلى حقولهم
.. يقضون سحابة يومهم في نشاط . يروون أو يزرعون أو
يحرثون أو يحصدون .. سعداء بقدر ما تساقط منهم من عرق
حتى إذا أجهدهم التعب . هجعوا تحت ظلال شجرة فوق
العشب الأخضر، وهم أكثر سعادة من هؤلاء، الذين ينامون
على فراش وشير . يخرقون من مياه نيلهم باكفهم . يشربونه
هنيئاً - فلما مالت الشمس بالغيب، عادوا إلى دورهم .
يقضون بعض الليل في صحن نار أحدهم، ليناقشوا شئون
حياتهم . يسامر بعضهم بعضاً في مودة وإحاء، لولا ما كان

يقلق خاضعهم لما أصاب وطنهم من ظلم عل يد الرومان^(١) الذين سيطروا على مصر، واستغلوا خيراتها، يجمعون القمح، ويرسلونه إلى روما .. هكذا كما كانوا يفعلون في فلسطين، إنها شرعة الفاصب العتدى الذي تنكب به الشعوب .. حتى جند الرومان .. كثيرا ما استغلوا سلطاتهم، فراحوا يفتزحون الرجال ممن أحضار نبيهم .. أمهاتهم أو زوجاتهم أو أحبائهم!!

صور كثيرة للحياة في مصر عاشها أفراد العائلة المقدسة، ما تشابه منها مع ما في فلسطين، وما اختلف.

ولأن الرحيل مكتوب، فقد غابوا منية سمود، أقلهم قارب شراعي، وعبروا نهر النيل (فرع دمياط حقيقيا) إلى الضفة الغربية .. حيث بلغوا مدينة سمود^(٢) فقابلهم أهلها بالوادة والمحبة، فقد كانوا يعلمون أخبار تلك البركات التي باركها الطفل عيسى في كل مكان زارته العائلة .. تل بسطة، ويليئس، والمخمة .. لذلك هرع إليهم كثير من أهل المدينة والقرى المحاورة، يلتهمون بركة الطفل العيراني، ويسعدون سحبة العائلة، ويبالغون في إكرامهم.

(١) استولى الرومان على مصر بعد انتصار أكتافيوس على بطليموس وكليوباترا في معركة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق.م وبذلك انتهى حكم البطالمة، فأصبحت مصر ولاية رومانية

(٢) سمود مدينة قديمة ترجع إلى عصر الفراعنة، وهي الآن أحد مراكز محافظة الغربية

وبقيت العائلة المقدسة في سمود ما شاء الله لها أن تبقى بين ظهراني أهلها . حتى شاء لهم الرب أن يعاودوا المسير خطوات جديدة إلى مكان آخر، فعادوا سمود . مولين وجوههم نحو الشمال، يحطون رحالهم حزنًا، ليستريحوا، ثم يواصلون السير أحايين كثيرة، وهم يذمون الله أن يهديهم إلى ما شاء لهم، وأن يوفقهم في خطواتهم التي كتبها عليهم، سعداء أن بدلهم الله بأرضهم أرضًا طيبة. وأهلاً بأهلهم، وأما في غربتهم وهكذا مضوا في الطريق .. مارين بكثير من القرى والمدن في عرض العلبا، حتى وصلوا إلى مدينة سخا^(١).

وفي سخا استقرت العائلة على مقربة من أحجار قديمة هي بقايا مدينة ترجع إلى عصر الفراعنة، وقد اعتاد الطفل عيسى أن يقف على واحدة من هذه الصخور^(٢) . لعله كان في وقته هذه يتطلع إلى السماء .. ينظر فيها آيات قدرة الرب حوله . أو يسأله أن يهدي قومه إلى طريق الصواب . فيما مضى غير قليل حتى تركوا مدينة سخا .. متجهين نحو

(١) سخا اسمها باللغة الفلبية بيخاسوس أي قدم المسيح، وهي الآن أحد مراكز محافظة كفر الشيخ

(٢) ما يزال قدم المسيح مطبوعة على هذه الصخرة التي ظلت محتفظة طوال القرون السابقة، ولم يمتد عليها إلا مسد ١٤ غاما، ومروى هذه الصخرة أقيمت كنيسة في القرن الرابع الميلادي

الشمال، فوصلوا إلى قرية ديرا المعطس^(١) على غير بعيد من بحيرة البرلس، وفي هذه المنطقة البعيدة عن النهر.. فحرا الله على يد الطفل عيسى دبح ماء عذب . أصبح موربا للكثيرين من القيمين بها أو العابرين لها

وهكذا بقيت العائلة المقدسة في رحاب الدلتا.. ولكن الذي لاشك فيه أنهم كانوا في شوق إلى ديارهم .. يوتقيون يوم يامرهم الرب بالعودة إلى أهلهم.

تري .. متى يحقق الرب لهم ما يأملونه؟

(١) بحج المسيحيين في يوم ٢٢ من كل عام إلى ديرا المعطس مثل حجهم إلى كنيسة القيامة، وعنده في شمس، ويسمونه عيد الظهور

(٩)

تنبت الحياة على وجه الأرض متى تهيأت لها أسباب
النمو، فهجد النباتات من التربة الخصبة والمياه العذبة، ما
يسمح للبذرة أن تنبت، وللنبت أن يخرج إلى الوجود . عموماً
أحضر، وللعود أن يعمو ويستقيم على وجه الأرض، ويكبر
ويزهو وينمو، ويؤتى أكله كل حين بإس ربه. ومن أجل هذا
كان فضل الله على الدنيا في مصر ما هبها لها من سبل
الحياة، فقدت عامرة بالحياة والسكان .. وهكذا مصت
العائلة المقدسة سعاد ما يسرّه الله من حيرات ومحبة
الباس لهم بفصل بركة الطفل الصغير التي أودعها الله فيه
حتى كان بات يوم .

استيقظ يوسف من نومه، وقال لريم وسالومة

- إني أشعر كأن هاتفاً يدعني إلى الرحيل من هنا إلى
مكان آخر بعيداً

قالت سالومة

- ولم الرحيل يا يوسف، وقد أجهدا طول الطريق؟ ولماذا
لا تبقى هنا حتى يأمرك الله - حسب وعده لك - بالعودة إلى
فلسطين أماكمها .

فقاطعها يوسف قائلاً

- إنها مشيئة الرب يا سالومة - إما تخطوا خطواتنا
حيث شاء، ومتى شاء

وقالت مريم

- ثقي في الرب يا سالومة، فقد يكون من الميراثنا
الرحيل متى شاء الله لنا.

فما هي إلا أيام قليلة . قضتها العائلة المقدسة في
الاستعداد للرحيل، وترونها ما استطاعوا لرحلة طويلة، ثم
عادوا قرية دير الغطس، وعبروا الجبل^(١) في قارب شراعى
إلى الضفة الغربية، ثم اتجهوا نحو الجنوب والجنوب الغربى
في طريقهم إلى البادية . حيث الصحراء الغربية من مصر

وإذا كان حيز الطريق ما عرفت بدايته ونهايته، فإن طريق
العائلة المقدسة لم يكن معروفاً بنهايته، لأنهم ما هم إلا
الله . يوجههم لحيز شاء، وهم واثقون بهدأته لهم.

مضت العائلة المقدسة في طريقهم يعبرون الأودية،
ويصعدون الروابي من نجد إلى نجد، ومن شرف إلى شرف .
يدورون حول الأكمام والصحور التي تعترض طريقهم،
ويخوضون الرمال التي بدت كموج البحر على مدى ما نصل
إليه أنصارهم . حتى إذا أصابهم التعب . التمسوا ضفة
كبيرة، وحلّسوا بحوارها . يحتمسون نعلها من حرارة الشمس،
فإذا كان الليل يبروده . عمدوا إلى بعض الحشائش الجافة.

(١) فرع رشيد حالي

فأشعلوا فيها النار، يلمسون فيها الحفء، وطال بهم الطريق
 من حلبين أو مستريحين .. حتى وصلوا إلى بركة شهيد^(١)
 التي هي جزء من الصحراء العربية، ثم تابعوا المسير حتى
 وصلوا إلى جبل النطرون الذي يقع شرق وادي النطرون^(٢).

كانت ظروف الحياة في هذه المنطقة تختلف كثيراً عن
 الفلتا، فلا حياة فيها ولا نبات ولا سكان! لأن الطبيعة شحت
 معانها عليها . ولذلك سعدوا بات يوم حين بدت في السماء
 سحابة سوداء هبت عليها ريح باردة، بعثرت أجرامها،
 وتساقط منها بعض أمطارها . كثيراً ما أعجبهم مشرق
 النهار حين تملو الشمس في الأفق، ومغربها، وهي تختفي في
 موكب جلال . تعلم أشعتها، ربما سألت سالومة نفسها،
 لئلا شاء الله أن تصل العائلة المقدسة في رحلتها إلى هذا
 المكان البعيد الخال من الحياة .. وما كانت تدري أن ذلك
 لأمر شاء الله، لتحظى هذه المنطقة ببركة عيسى، لقد سره
 في لوح مقاديره^(٣)

(١) بركة شهيدات أو شهيد ومعناها مبرون القلوب.

(٢) وادي النطرون كان يسمى وادي هيب على بعد ٨٠ كم من القاهرة، وهو
 واد مستطيل طوله ٦٠ كم، ومتوسط عرضه ٦٠ كم وهو منخفض عن سطح
 البحر بحوالي ٢٢ متراً . تشغله بحيرات يقامها راسب سدكه من
 النطرون، هو الآن ينبع محافظة البحيرة.

(٣) أصبحت هذه المنطقة بعد دخول المسيحية مصر ومضطهاد الرومان
 للمسيحيين ملجأ ومهرباً للرهبان والقاريين بينهم، ولذلك امتلأ بالدير
 مثل دير أنبا بيشون، ودير أبو مقار ودير المريش، ودير اليرموك في

لم ترض العائلة المقدسة طويلاً في هذه المنطقة، فارتحلوا منها بعد أن باركها عيسى، وباركتها مريم، وانصهروا نحو الجنوب الشرقي.

هينما هم ماصون في طريقهم .. خرج عليهم رحلان، واقتربا منهم، وسداً عليهم الطريق، وأقبلوا على سالومة، وكانت تحمل صرة فيها متاع العائلة، فأمسك بها أحد الرحلين، واقترع الآخر الصرة من يديها في قسوة .. كان الرحلان لصين .. تابعا العائلة المقدسة منذ خروجهم من وادي البطرون، وسؤل لهما شيطانهما أن الصرة بها متاع شين، فراحا يحططان للحصول عليها، فما كانا يفعلان .. حتى أحسنا بالندم، وحانت من أحدهما التفاتة إلى الطفل الصغير فأحس في قلبه هوى يدفعه إلى العودة إلى العائلة، فما اقترب من الطفل حتى بادله بابقسامته ابتساماً، كانت رسول سلام إلى قلب اللصين، فأعاد الصرة بها إليها في سالومة، وكان الله فتح معالوق قلبيهما حتى أن أحدهما خائنه دموعه، هبكي، كمن يحاول أن يعسل بها نفسه مما غلق بها من أدرا، وإذا كانت مريم سعيدة بعودة المتاع إليها، فقد كانت أكثر سعادة بتوبة اللصين.

وعادت العائلة المقدسة تضي في طريقها توتعهم

١٠٠ عهد الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس والذي عرف عصره بعض الشهداء، بداية الفدرج المبطن، ويقال أن مجموعة كبيرة من رهبان هذه الأديرة قد القوا بعمرو بن العاص عند فتح مصر. وكتب لهم كتاباً جديده في دير أبو مطر

نظرات الرجلين، ناعين لهم بالسلامة .. حتى إذا وصلوا إلى الضفة الغربية للنيل، شعروا بتسمات رقيقة تفسح على وجوههم .. كأنها تنسيهم ما عانوه في البادية، فاستقلوا قاروا شراعبا، وعبروا النيل إلى الضفة الشرقية حتى وصلوا إلى مدينة أون.

تري .. هل امتد بهم البصر نات يوم، ف شاهدوا أهرام الجيزة التي بناها المصريون! لتبقى معجزة على مر السنين!!

(١٠)

لم تستطع المنايح التي أقامها هيرودس في بيت لحم وما حولها، أن تفعنه بروال الخطر الذي كان يتوقعه، ولم يشف عليه سبع عشرات الآلاف من الأطفال الأبرياء، فقد كان يشعر في قرارة نفسه أن القدر يقذف به وبأولاده الثلاثة إلى مستقبل مضطرب، تحصف به الأحداث .. وكثيراً ما قضى لياليه مثقلات بالسهاد، يتطلع إلى السماء علىه يجد سبيلاً يطمئنه، وما كان للسماء أن تنصف الظالمين .. كثيراً ما كان يراقب المحوم في أفلاكها، يحاول أن يستلهم منها طالعاً، فما أطلعت النجوم على مستقبله، ولم تعد له الحياة حلوة، كما كانت من قبل، فقد خالطها الكدر وشابها الفزع، وعمت له، كمن رزى في حظه، سواء ليلة ونهاره .. صبحه ومساءه .. يقطعه ومنامه!!

حتى كانت بات ليلة ..

جلس هيرودس بجوار نافذة حجرته، كما اعتاد أن يفعل، يفكر في أمره، وقد ملأ الهم جوانحه، يصعد أنفاسه، ويضغ أضراسه .. كان الليل قد انتصف، فاختلس من السهاد لحظة، صمت فيها عتبه، فسمع هاتفاً يهتف به:

- إن الطفل الذي تطلبه .. ما يزال يعيش حتى الآن.

استيقظ هيرودس من غفوته فزعاً، وتعم عليه، فقد تأكدت

طفونه، وما زالت المحاوف من المستقبل تلاحقه، فماذا يفعل
لكي يقصي على هذا الطفل الذي يهدد ملكه؟ وعاءه الغيص
مرة ثانية، فجاء صوت الهاتف يدنيه

- إن الطفل الذي تبحث عنه ما يزال يعيش حتى الآن
.. في مصر.

كانت مفاجأة لهيرونس، فلم يكن يتوقع أن يتعدده
الطريق. لم يستطع أن يهلك الطفل، وهو في فلسطين، فكيف
يطلبه وهو الآن في مكان بعيد لا تصل إليه أيدي رحاله . كم
يحيره السؤال، ويشقه الفكر

في تلك الليلة كانت أستير . ترافق سيدها من ناحية
حجرتها القريبة منه، فتصهت إليه، وهي يدها شمعاً مضيئة،
ما كانت تلقى بأشعتها على وجهه حتى أدركت مقدار ما
يعتمل في نفسه

كانت أستير واحدة من نساء القصر قد ساهرت الحامسة
والعشرين من عمرها، وإن بدت أسس من هذا، فقد قامت
الكثير من ألوان الشقاء منذ مات أبواها . لم تنعم بطفولتها
مثل غيرها من أترابها، فهامت على وجهها بلا مأوى
تصرب في فجاج الأرض الواسعة معانها ومجاهلها على
غير هدى .. دون أن تجد حاجة تنفياً لظلالها . كانت كدبة
بصرة تحاول أن تشق طريقها في الحياة من خلال تربة حدية
ترونها مله أسدة، أو كرهرة حميلة وسط أحراش كثيفة لم
تجد من يلف إلى جوارها، يحفف عنها ما تعانيه من الام

الوحدة وشطف الحياة، أو يمسح عنها أحزانها، أو يضمده جراح الآمها . حتى التقطها أحد رجال هيرودس، وقد أسرته حماتها، فالحقها خادمة في قصر سيده، فما مضت بصح سنوات حتى كان حماتها طريقا إلى قلب سيدها . يشعر بالأمان إلى جوارها . يستريح لأحاديثها . يتعرف على وقع خطواتها . يطلب لقاءها كلما أهله آمن، أو استوحشه الأمان . حتى غدت مستودع أسرارها، فسمعت هي بهذه الخطوة، واستطاعت أن تفس شفاف قلبه، واستمرأت رحيق الهذأة بجواره، وتفتحت أمام عينيها آفاق واسعة . حتى لقد هبات لها خواطرها أن ترقى إلى ما ارتقت إليه سميتها^(١) ذات يوم.

اقتربت أستير من سيدها، وفي ليلة رقيقة حانية قالت

- مولاي .. أراك الليلة مسهدا!!

فلتفت هيرودس إليها، وقال

- بل وكل ليلة يا أستير . حتى النجوم . كانت لي رفيق

سهدي .. أنس بها . كنت أسألهما وتساخرني، حتى مللتها

(١) سميتها هي أستير من بنات إسرائيل . ولها ابن عمها مريدحاي بعد موت أبيها . استطاعت شكرها ودهانها أن تقترب إلى الملك أحشوربوش ملك الفرس، ويروجها دون أن تضره بخصمتها أو دينتها، و ذات يوم حاول وزيره هامان أن يقنعه بقتل كل اليهود في مملكته هؤلاء الذين أسرههم الملك بختنصر . وأحدهم إلى بابل . لكن أستير استطاعت بحسن حيلتها أن تنفع الملك بالعفو عن اليهود (لها سفر باسمها في أسفار العهد القديم).

وملئني .. وأحسب أن السماء تثار مني . قناصيني العناء ..
أما كفى الأتعار ما ألحقته بي من محاروف وأفكار سوء؟

- فهل لي أن أفعل من أهلك شيئا يا مولاي؟

- وماذا تستطيعين أن تفعلي يا أستي، فهل لك أن تعيدي
الغمض إلي جفني ..؟

-؟

- وهل تستطيعين أن تنبئيني ما يخفيه العد لي؟

- قدع الغد يا مولاي، فقد غمض العد عن كل الناس، لا
يبوح لأحد بسره

- لكني أحشاء يا أستي.

- فهل لك بكأسي من شراب يعميك محاروفك؟

- ومتى كان للشراب أن يمسبني الحير لي أن أبحث عم
يعيد الأمان إلي نفسي.

- فمادا يلقى مولاي، وكل ما حولك يبعثك السعادة؟

وسكت هيريس قلبلا، وراح يسترحج دكريات يتدهق
صورها أمام عينيه، ثم قال

- هل تذكرين يا أستي، تلك الطفل الذي قيل إنه ولد
لعذراء؟

- أذكره جيدا يا مولاي، والذي من أجله دبح رجالك آلاف
الأطفال في بيت لحم وما حولها، ولأشك أنه واحد منهم

- لا يا أستير. الطفل ما يزال حيا، أخطأته سكاكين
رجال.

- هُمز رجالك، فليأتوا به، وليكن لك فيه ما تشاء.

- لكنه يعيش بعيدا يا أستير، إنه الآن في مصر ١٩

- ١٩!

- وأصوب ما يحيفني .. أن يعود إلّي بعد سنوات .. رجلا
بناصني العناء، كما فعل من قبل موسى .. إنني أشعر الآن
كطائر علا في الأفق، ثم دهست قوته، هوى على الأرض
مرحيا جناحيه!!

وتناثرت الكلمات على شفهي هربوس، كأنما أصابته
لونة، وهو يقول

- لا .. لن أكون فرعون موسى

قالت أستير تهدي من روعه

- هدم عليك محاولتك يا مولاي، فليست مصر بعيدة عنك

- ولكن .. ليس لي سلطان عليها.

- أليست مصر واحدة من ممتلكات الدولة الرومانية،
تخضع لشبيثة سجدى أغسطس، ويحكمها وال روماني، يدين
بالولاء لروما؟

- هو كذلك يا أستير

- فما عليك إلا أن ترسل ببعض الهدايا إلى واليها مع

رجالك، وتطلب منه أن يعيد إليك الطفل

- كانت لي علاقة طيبة بالوالى السابق، روبرتوس الذى
انتهى عهده . تولى حكم مصر وال جديد هو ثورانيوس لا
تربطنى به علاقة

قالت أستير.. تشجعه

- تستطيع ذلك ما ترسله من هدايا قيمة إليه، فالهدية
خير طريق إلى المودة

فما أسفر الصبح . حتى أرسل هيرودس بعض رجاله
وحشوده، يحملون الهدايا إلى والى مصر، ويطلب منه أن
يساعدهم فى البحث عن الطفل الإسرائيلى الذى يعيش فى
مصر، ليأتوا به . وقال هيرودس فى نفسه

- ولن أكون فرعون موسى!!

ههل فقال النهر بيران الحرائق^{١٩}

(١١)

كان وصول العائلة المقدسة إلى مدينة أون (هليوبوليس) مرحلة جديدة من رحلتها الطويلة في مصر، لأن هذه المدينة كانت من أهم المدن المصرية القديمة خلال التاريخ الطويل، لما تتنازبه من آثار مصرية ويونانية ورومانية، فضلا عن أنها من المناطق المزدحمة بالسكان الحيوية النشاط صحيح أن الإسكندرية كانت هي عاصمة مصر في ذلك الوقت .. إلا أن مدينة (أون) تتناز أيضا موقعها على الطريق التجاري بين مصر وفلسطين، وهي منحل مصر من الناحية الشرقية، وفي شمالها كانت تقع القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر والتي كان تعرف بقناة سيروس تريس من قبل، مما أعطاهم مكانة هامة.

وحينما وصل أفراد العائلة المقدسة .. كان عليهم أن يستريحوا كعادتهم، تحت ظلال شجرة في منطقة المطرية، امتارت هذه الشجرة^(١) بامتداد فروعها وأوراقها، فجلسوا

(١) هذه الشجرة عرفت فيما بعد بشجرة العذراء مريم، وقد أراد الخديوي إسماعيل قطعها وإعطائها هدية للإمبراطورة أوجينى الفرنسية، حين جاءت إلى مصر في حفل افتتاح قناة السويس لكن الإمبراطورة رفضت قطعها، ووصلت بلقاءها في مكانها، وقد سقطت هذه الشجرة سنة ١٩٠٦م وخرجت منها شجرة صغيرة، هي التي ما تزال موجودة حتى الآن. قام المجلس الأعلى للأثار بإقامة سور عال حولها للحفاظ عليها

نَحْنُهَا . يَنْعَمُونَ بِطَلَالِهَا ، وَيَنْتَسِمُونَ رِيحًا طَيِّبًا تَسْبِيحُهُمْ مَا
عَانَوْهُ مِنْ مَشَقَّةِ الطَّرِيقِ فِي الصَّحَرَاءِ الْغَرِيبَةِ.

حَتَّى إِذَا اسْتَعَادُوا رَاحَتَهُمْ ، أَدْرَكُوا حَاجَتَهُمْ إِلَى الْمَاءِ ،
لِيَشْرَبُوا ، وَيَغْسِلُوا مَلَابِسَهُمْ ، وَلِيَذْهَبَتْهُمْ .. رَأْوَا الطُّغْلَ عَيْسَى
يَخْطُ الْأَرْضَ بِعَصَاهُ فِي مَنَاطِقَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الشَّجَرَةِ .. سَرَّعَانَ
مَا تَنَقَّلَتْ مِنْهَا مِيَاهُ عَرِيرَةٍ . فَشَرَبُوا مِنْهَا مَا شَاءُوا ، وَغَسَلَتْ
مَرْيَمُ مَلَابِسَ طِفْلِهَا عَيْسَى ، ثُمَّ نَثَرَتْ الْمِيَاهُ حَوْلَ الشَّجَرَةِ ، وَهُمْ
يُحْمَدُونَ لِلرَّبِّ فَضْلَهُ وَحَيْرَهُ.

وَمَضَتْ الْأَيَّامُ بِالْعَائِلَةِ الْمَقْدِسَةِ عِبْدَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ
يَجْعَمُونَ مَحَبَّةَ النَّاسِ ، الَّذِينَ أَحْصَوْا فِيهِمُ الْبَرَكَةَ ، وَكَثِيرًا مَا
كَانَتْ مَرْيَمُ تَفْضِي وَفَتْهَا مَسْكَةً بِمِفْرَافِهَا ، تَعْمَلُ خِيُوطًا مِنَ
الصُّوْفِ ، لَتَكُونَ مَلَابِسُ يُوسُفَ أَوْ لِعَيْسَى ، وَلَا تَنْسَى أَنْ تَدْعُو
رَبِّهَا أَنْ يَحْقُقَ أَمَالَهُمْ بِالْعُودَةِ إِلَى وَطَنِهِمْ
حَتَّى كَانَ نَاتِ يَوْمٌ ..

اسْتَيْقَظَ أَسْرَادُ الْعَائِلَةِ الْمَقْدِسَةِ نَاتِ صَبَاحٍ ، فَاسْتَعْدَهُمْ أَنْ
يُحْدُوا الْمَنَاطِقَةَ حَوْلَ الشَّجَرَةِ قَدْ كَسَتْهَا الْخُصْرَةُ ، وَأَنْ يَبَاتَ
الْبَلَسَمُ^(١) يَشُقُّ الْأَرْضَ فِي هَذِهِ الْمَنَاطِقَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ مِنْ
قَبْلُ .. كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْمِيَاهِ الَّتِي غَسَلَتْ بِهَا مَرْيَمُ مَلَابِسَ

(١) دِبَاتُ الْبَلَسَمِ مِنَ الدِّبَاتِ طَبَقَةُ الرَّاغِمَةِ ، كَانَ يَبْمُو فِي فَلِسْطِينَ وَلَمْ يَكُنْ
يَعْرِفُ فِي مِصْرَ حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَهُوَ مِنَ الدِّبَاتِ نَائِيَةُ الْخُصْرَةِ حَوْلَ
الْعَاقِ لَا تَعْمَلُ أَرْوَاقَهُ ، لَهُ عِدَّةُ فَوَائِدَ تَعْبَهُفُ أَلَامَ الْأَسْمَانِ ، وَفِي التَّطْبِيبِ ،
كَمَا يَسْتَخْدَمُ فِي الْكِبَالِ.

ابنها وألقوها على الأرض حولها.

عُرِفَت مدينة أُون بأنها كانت مركزاً لعبادة إله الشمس (رع)، ولذلك أقيم فيها كثير من المسلات والمعابد الضخمة للعبادة وتقديم القرابين للآلهة، والأدعية والتراثيل، وهي أحد الأديان .. خرجت العذراء مريم .. تصحب ابنها، يهوئان أنحاء المدينة لأمرها، فما كاد الطفل عيسى يقترب من أحد المعابد .. حتى انهارت جدرانها، وسقطت فيه تماثيل الآلهة، وتناثرت . نفس ما حدث^(١) ذات يوم في تل بسطة .. لذلك أسرع أفراد العائلة المقدسة، فتركوا الطريق^(٢) واتجهوا نحو الجنوب، ونزلوا في منطقة الريثون^(٣)، حيث باركها عيسى، ولقوا من أهلها كل ترحيب ومحبة، وبقيت العائلة المقدسة تنعم بفضل الله عليها، ثم رحلوا منها إلى منطقة مصر القديمة.

فلما كانت ذات ليلة .

هدأ يوسف للراحة، فعفت عيناها، فسمع هاتفاً يناديه:

(١) لعل ذلك كان لما جاء في سفر أشعيا النبي أحد أسفار العهد

القديم (عزقيم أوثن مصر من جهة) الإصحاح ١٩ مقرة ٢٥

(٢) تروي بعض الروايات أنه في جهة ما من الطريق، لا يستمر فيها عيسى، لأن

أهلها رفضوا إعطائه الحبر لمريم عندما خرجت تطلبه منهم لطفلها

(٣) في المنطقة التي زارتها العائلة المقدسة توجد كنيسة العذراء مريم، وفي

سنة ١٩٦٨ ظهرت العذراء في قبة الكنيسة، وصاحب ظهورها خروج حمام

أبيض ومجموع صغيرة منيرة، وكان يشم رائحة بخور طيبة.

- يا يوسف، إن هيرودس - مرمع أن يرسل جنوده إلى
مصر ليطلبوا الصبي وأمه.

حتى إذا استيقظ يوسف، واستعاد كلمات الهاتف له
أدرك أنه نفس الصوت الذي ناداه ذات يوم، وأمره أن يأخذ
الطفل وأمه، ويهرب بهما (إلى مصر) خوفا عليهما من
هيرودس، ومعنى هذا أن هيرودس ما يزال يبحث عن الطفل.
ليقبض عليه، وعاد إلى ذهن يوسف ما حدث في تل بسمطة
حين تحطمت آلهة معبد الإلهة باستت، وما حدث في أون
حين تحطمت آلهة المدينة، وحضى على مريم وأنها من أن
يعرفهما الناس، وتكون عرضة للقبض عليهما، لذلك اتجه
يوسف إلى مريم، وقد علت وجهه مسحة من التردد، وهو
يقول:

- يا مريم .. يا ابنة العم ..

وسكت يوسف قليلا، ببر لهفة مريم، ثم عاد يقول

- لقد كتب علينا الرحيل.

قالت مريم

- وإلى أين يا يوسف؟

ووجدت سالومة فيما يقوله يوسف فرصة تعبر فيها عما
يحول في خاطرها، فقالت:

- إلى أين يا يوسف؟ أعود إلى الصحراء، ثانية؟

قال يوسف.

- إنها دعوة من الرب أن نرحل بعيدا .. بهذا أمرنى ملاكه.

وراح يوسف يحكى لمريم وسالومة ما كان من أمره مع ملاك الرب، وقد تراءت أمامهم تكررات وخواطر كثيرة .

قالت سالومة:

- أما يكفى هيرودس ما فعله بقومنا .. أما يزال شيطانه يصول له الشئ؟!

فجالت مريم فى إيمان بالله.

- إنها مشيئة الله يا سالومة .. أن نرحل .. فخطواتنا ليست طوع أمرا .. نخطوها كما نهوى، ولكننا مضى بها على هدى من الرب.

وقال يوسف:

- بعيدا .. بعيدا .. عن أيدي رجال الحوالى الرومانى وجنود هيرودس.

وقالت مريم.

- وليكن لنا فى القدر مكان آخذ، ونسعد بقوم آخرين.

(١٢)

فيما مضى . كان أفراد العائلة المقدسة يستريحون في ملاحفة رجال هيرودس لهم، كثيرا ما كانت تتراعى أمامهم الخواطر كصوه سرعان ما يطرئونها عن أذهانهم . أما وقد أبيا ملاك الرب يوسف ما اتواء هيرودس، وأنه أرسل جنوده إلى مصر، فقد كان عليهم أن يتعمدوا بأنفسهم عن هذه المنطقة فانجهوا سريعا نحو الجنوب إلى منطقة مصر القديمة، ومروا في طريقهم على عدة مناطق ما تزال بها آثار مسيحية حتى الآن، مثل حارة زويلة ومنطقة الغزنويين.

وحيثما وصلوا إلى مصر القديمة . لم يستطيعوا أن يقيموا تحت ظل شجرة كما كانوا يفعلون من قبل، بل كان عليهم أن يختبئوا عن أعين الرقيب، حتى يأسئوا التعرف عليهم، وتلك كانت إقامتهم في معارة أو كهف^(١)، وساعدهم على تلك وجود تجمعات يهودية^(٢) في هذه المنطقة

(١) من أهم المناطق التي اختبأت فيها العائلة المقدسة حارة الخريف، والتي توجد بها الآن كنيسة قديمة تعتبر مياها مقدسة، ويأتي إليها بطريرك البشارة لياخذ كمية من مياها يوم ٢٠ يولية من كل عام. ومعارة أبو سرجة التي ما تزال موجودة حتى الآن، وقد أقيمت فوقها كنيسة أبو سرجة التي تعتبر من أهم المزارات المسيحية.

(٢) مما يذكر أن اليهود كان لهم حصص بهم، ومعبد ما تزال بعض آثاره موجودة، ويقال أن الذي بناه هو النبي إرميا، (له سفر باسمه من أسفار العهد القديم).

لم تستطع العائلة المقدسة أن تستمر إقامة طويلا في مصر القديمة، فسرعان ما غادروها بعد أن باركوها ..
مبتعدين نحو الجنوب . حتى وصلوا إلى منطقة المعادي
واحتبثوا في معارة فيها، أقيمت عليها فيما بعد كنيسة^(١)
العذراء مريم.

من المعادي .. عبرت العائلة المقدسة النيل في قارب
شراعى إلى الضفة الغربية حيث زاروا مدينة منف^(٢) ثم
استقلوا مع بعض المسافرين مركبا شراعيا . متجهين نحو
الجنوب في رحلة طويلة.

ومضى الركب الشراعى بهم في النيل . يتهادى فوق
صفحة المياه .. هم سعداء بما هيأ لهم الرب، وكانت
سعادتهم أكثر بربان المركب الماهر الذى كان على دراية
عالية بشئون الملاحة في النيل، وقد امتلك براءة زمام دفة
المركب .. يحركها مهارة، ويوجهها بدقة، واستطاع بحكمته
أن يتحكم في شراع المركب .. ينشره أو يجمعه تبعاً لاتجاه
الرياح، فلما أعجزه الأمر .. دفع ببعض مساعديه إلى الشاطئ

(١) في يوم ٢ برمهات الموافق ١٦ مارس سنة ١٩٧٦ عثر على كتاب مخصص
لقدم يطفون فوق سطح الماء . كان مفتوحا على صفحة من سفر اشعيا،
(أحد سفر العهد القديم، الإصحاح ١٩ فقرة (٢٥))والتي جاء بها (مبارك
شعبي مصر) وهنا الكتاب محفوظ الآن في كنيسة العذراء مريم بالهندي.
(٢) منف (ممفس) كما يطلق عليها الهنانيون. كانت عاصمة مصر في عصر
الدولة القديمة بعد توحيد الوجهين على يد الملك منب (مارمر)، واستمرت
كذلك حوالي ٨٠٠ عام .. هي الآن منب رهينة بمحافظة البحيرة

ليشدوا المركب بحبال ربطوها على أكتافهم، وهم يغنون
أغانيهم التي تبعد الكلل على أجسادهم، ومن حين لآخر
يردون عبارتهم المألوفة .. هيللا هيللا .. هيللا ليصا^(١) .

ولاشك أن أفراد العائلة المقدسة .. قد اشتركوا مع غيرهم
من المسافرين في أحاديث كثيرة .. عن النيل وخيراتهِ على
مصر، مما دفع المصريين إلى عبادته وتقديسه، ولعلهم ذات يوم
شاهدوا احتمال المصريين بعيد وفاء النيل العظيم، وهم يلغون
إليه بعروس زينوها .. تقريبا إليه، كي ينحهم فيصاننا هيللا
أرضهم بركة وخيرات، ولا بد أن بعضهم قد تحدث عن سيطرة
الرومان على مصر، مما دفع بريم ويوسف وسالومة أن يتذكروا
ما فعله الرومان في فلسطين، وذلك الهيرودس الأدومي الذي
كان سببا في هروبهم من ديارهم، في انتظار يوم العودة.

وهكذا مضى المركب في النيل من فيه عدة أيام .. حتى
رسا بهم في منطقة الجرنوسي على بعد ١٠ كم من مغاعة^(٢)

كان من الطبيعي على الأسرة المقدسة ألا يهضوا في طريق
واحد، حتى لا يصل إليهم جنود هيرويس، ولذلك كثيرا ما
كانوا يفسرون طريق المدن الواقعة على النيل، ليتجهوا إلى
الشرق حيث بعض الجبال، أو إلى الغرب حيث المنطقة أكثر
سهولة، فما كانوا يصلون إلى مغاعة حتى اتجهوا نحو الغرب.

(١) هذه العبارة ترجع إلى عصر الفراعنة، وتعني الدعوة إلى الخروج من الطريق.

(٢) في غرب مغاعة بعيدت كنيسة العذراء مريم، حيث كان يوجد بئر قديم.

يعتقد أنه كان يمد العائلة بهاجاتهم من المياه.

هزاروا قريتي صندفة^(١) وبهنسة^(٢) .

من بهنسة في الغرب انجبت العائلة المقدسة إلى بنى مزار على النيل، وعبروا إلى الضفة الشرقية، ومضوا في طريقهم نحو الجنوب، حتى وصلوا إلى قرية بنى خالد ثم إلى سمالوط، فنزلوا من المركب، ثم ساروا حوالي ٢ كم، وكان الطريق قد أجهدهم وحراة الشمس تلفح وجوههم، فحشوا إلى جبل يعرف بجبل الطير^(٣) ليستظلوا بظلاله.

فيوما هم كذلك ..

. انهارت كتلة ضخمة من الجبل، وزحفت نحوهم، حتى انكاد تسقط عليهم، وارتفعت مريم، وكان أخوف ما يحيفها على انبها، وبني لهفة يوسف، ودعوات مريم، وهي تتعلق بنظرها إلى السماء . أنهشهم أن يروا الطفل عيسى، وهو يمد يده يثقف الصخرة بكفه^(٤) . صدها، منعها من السقوط،

(١) صندفة حاليا . وكانت تعرف باسم (أباى ايموس) أى قدم المسيح، وهي

تبعد عن بهنسة بحوالى ١٠ كم

(٢) بهنسة على بعد ١٧ كم من بنى مزار

(٣) جبل الطير . سمي بهذا الاسم لأنه كان يضم معابد لعبادة الطيور المقدسة، والتي من أشهرها طائر أبو قير، وكان بالجبل شق . نائى إليه كل عام جماعات من هذه الطيور، كل طائر يصح منقاره في شق الجبل، ثم يبعس، حتى يأتى أحد هذه الطيور، ويضع منقاره في الشق، فيلتهم الشق عليه ويبقى كذلك معلقا حتى يموت

(٤) في أجل ذلك سعى بجبل الكف، وبذبت فوقه كنيسة الكف، وما زالت آثار

كف المسيح موجودة على الصخرة حتى رؤيتها

لتبقى في مكانها، كأنها أمسكت من الحركة، ليمضي الجميع مبتعدين عن خطر أوشك أن يحيق بهم، وقد أسعتهم بركة الطفل، ولعل مريم في تلك اللحظة . قد تذكرت ذات يوم حين أنطق الله عيسى، وهو في مهده (وَجَعَلْنِي مَبَارَكًا إِنَّمَا كُنْتُ)

قضت العائلة المقدسة في هذا المكان ثلاثة أيام بعد أن باركه عيسى، وباركته مريم، واستقلوا مركباً شراعياً، ماضين في طريقهم، فمروا على مدينة المنيا^(١) وترزلة عبيد، وعبروا النيل عند المنطقة التي يشغلها الآن كورنى المنيا الجديد، ثم مضوا في طريقهم نحو الغرب .. حتى وصلوا إلى مدينة الأشمونين^(٢)، كي يتبعوا عن طريق النيل، فما كانوا يصلون إلى هذا المكان، حتى حدث ما لم يخطر على بالهم!

كان في مخيل مدينة الأشمونيين تمثال لحسان من النحاس يعبده الناس في هذه المنطقة، مما كاد عيسى ينظر إلى هذا التمثال . حتى تهاوى عن موضعه، ولعل هذه الصورة قد أعادت إلى ذهن مريم ويوسف ما حدث من قبل في تل بسطة والطرية، وخشيت العائلة مما قد يترتب على ذلك من متاعب قد تكون سبباً في التعرف عليهم . لذلك أسرعوا،

(١) المنيا: كان يطلق عليها منذ خوفو (أو رمسة خوفو)، أو مديه خوفو،

وكانت هذه المدينة عاصمة إحدى مقاطعات الصعيد

(٢) الأشمونيين: كانت تعرف باسم (حننى) أو (حسبن شمنون) أى مدينة

الذمانية معبودات . وكانت عاصمة الولاية ها في الوجه القبلى

فغادروا مدينة الأشمونين، عائدتين إلى مدينة ملوى^(١)، حيث استقلوا المركب الشراعى، ومضوا فى الطريق نحو الجنوب حتى وصلوا إلى مدينة ديروط^(٢).

أقامت العائلة المقدسة فى ديروط عدة أيام، ثم غادروها إلى القوصية^(٣)، واتجهوا نحو الغرب، حتى وصلوا إلى مدينة مير^(٤) (ميرا)، ولكنهم لم يكتفوا فيها طويلا، فسرعان ما اتجهوا نحو الجنوب.. حيث وصلوا إلى جبل قسقام^(٥).

أحس أفراد العائلة المقدسة فى قسقام بأنهم يعتمدوا عن مواطن الخطر الذى كان يتهدهم، فقد كان هذا المكان سنأى عن العمران، ومن أجل ذلك بنى يوسف فى هذه المنطقة بيتا من الطوب النئى، وسقفه بجذوع النخل، وحفر إلى جواره بئرا كان يمد أفراد العائلة بها يحتلجونه من المياه، وقد سعد كثير

(١) ملوى. أصلها ملقوى أى مستودع الأشياء، وهى الآن أحد مراكز محافظة المنيا

(٢) ديروط. تعرف بدير يوفى الشريف، وهى إحدى مراكز محافظة أسيوط

(٣) القوصية. هى الآن أحد مراكز محافظة أسيوط

(٤) مير. ومحلها الأرضى العسبة، وهى قرية قديمة ترجع إلى عصر الفراعنة، ويقال إن جنود هيرودس قد وصلوا إلى هذه القرية، ولكنهم لم يسلخوا على مكان العائلة المقدسة

(٥) جبل قسقام. يتبع محافظة أسيوط، ويبعد عنها حوالي ٦٥ كم، وهى المكان الذى أقامت فيه العائلة دير المحرق، وله عيد عظيم يعرف بعيد الرينونة وكلمة قسقام تعنى اللاتينية، أى إلى الأبد وهى جبل قسقام بى الأسباطور الرومانى زبىون. عدة كنائس، وهى إحداها كنيسة تعميد ابنته القديسة لبارينا. ذلك بعد تحول المسيحية مصر.

ممن كانوا يرتادون هذه المنطقة، وكانوا يشربون من مياه
الين، ويتبركون بالطفل عيسى الذي شفى كثيرا من مرضاتهم.
وهكذا بقيت العائلة المقدسة في جبل قسقام حتى يقضى
الله أمرا كان مفعولا.

(١٣)

مصت الأيام، وتلاعبت الشهور، ولم يعد الجسد الذين
بعث بهم هيرويس إلى مصر، ليقبضوا على الطفل وأمه، ولم
تبد في الأسق بوابر تطمئنه على تحقيق الأمل الذي يراوده .
حبيل إليه أن الهاتف الذي أنبأ بوجود الطفل في مصر . قد
كذبه أصله حذمه . أو أن رجاله قد لحقوا بالمجوس، ولن
يعودوا إليه . أترك أمه كمن رلت قدمه في ثور . بعيد غورها
في مكان ماء قراح يتخبط ويضطرب . يهب ويثب كلما
حاول أن ينحو بنفسه عساوده السقوط . فلا هو يبالغ رأس
البئر، ولا هو يبالغ قراره . وبعثت به الطلوع إلى أن يذهب في
تفكيره مذاهب شتى . أسلمته لهوا حس تعصف بعقله . لم
يعرف في أيامه الصبي بقدر ما شعر فيها باللبال المظلمة
الحالكة أحزنه حاله، والخوف على مصيره أنساه الحزن
كل ما حوله، ولم يعد يتذكر إلا كل ما يؤرق حفيفه شعر كأن
الأقدار تترصد له تبعث بعقله . تدفعه إلى أمال كاذبة
حتى إذا لعب الغصص بحففيه ذات ليلة، سمع هاتفًا يناديه

- يا هيرويس، إن الطفل الذي تبحث عنه ما يزال حيا .

تحرك هيرويس في فراشه، وفتح عينيه، يحاول أن يرى
مصدر الصوت الذي يناديه لكنه لم ير شيئًا، رغم ما يحيط
به من شموع نلأ الحجرة نورا ..

وعاوبه الفكر. وعابوه الغمص. ومرة ثانية .. جاءه صوت الهاتف.

- إن الطفل الذي تبحث عنه ما يزال يعيش مع أمه . في مصر.

- أعرف ذلك . ولكن أين؟!

- في جنوب مصر. في جبل قسقام .. في صعيد مصر في بيت خريم.

أماق هيرويس، وهو يريد

- جبل قسقام .. قسقام.

كانت كلمات الهاتف بداية جديدة - أعادت إلى هيرويس الأمل الذي افتقده، فلم تعد مهمة رجاله صعبة كما كانت من قبل . لقد حدد الهاتف مكان الطفل وأمّه .

فلما كان الصباح - جمع هيرويس بعض رجاله ممن يثق بهم، وأحضرهم بما يدور في ذهنه، واختار بعض جنوده، وبعث بهم إلى مصر، وحدد لهم مكان الطفل في جبل قسقام في صعيد مصر . وأمرهم أن يسرعوا بالقبض عليه، وحذرهم من كل ما يفسد مهمتهم.

وبينما كان الجنود يستعدون للرحيل كان هيرويس يفرك يديه في عصبية ظاهرة يشابك أصابعه حبسا، ويفرقها حيناً آخر، وصوت في ناخذه يردد

- جبل قسقام

(١٤)

ألف أفراد العائلة المقدسة الحيلة في جبل قسفاًم.
ومضت بهم الأيام أكثر ما يكونون إحساساً بالأمن، فقد
ابتعدوا عن موطن الخطر الذي كان يتهددهم، وإن بقيت
قلوبهم متلهفة بالأمل أن يعودوا إلى ديارهم، كثيراً ما كانت
مريم تدعوا ربها أن يعيدها إلى أورشليم، لتفصل في بيت
الرب، وتناديه في هيكله المقدس، وإلى ديارها في عين كارم،
لتطمئن على قومها، وخاصة الأوصياء وابنها يحيى، وإلى
بيت لحم .. حيث كان مهد ولدها عيسى .. وإلى الناصرة ..
بكريات كثيرة، وآمال عريضة كانت تتراعى أمام عينيها، فما
ملك إلا أن تلجأ إلى مصلاتها . ثنائى ربها أو تناحيه ..
يشاركها كل من يوسف وسالومة، وعبودهم تنطلق إلى عيسى
.. روح من الله وكلمة منه . الفاها إلى مريم

جلس الجميع ذات ليلة . يسامرون الليل ونحوه، فلاحظ
يوسف دمعة تفرق في عين مريم، تسكبها مقلتها، فقال لها:

- أحنين إلى ديارك وأهلك يا مريم؟

قالت سالومة . وقد أيقظها السؤال

- ما أحسبها . إلا ما نقوله يا يوسف، فكيف هي شوق إلى
ديارنا وأهلنا، وبسمات أورشليم، وعطر حجرون

قتل يوسف

- وهيرودس - الذي ما يزال يطلب ابنك يا مريم؟
- هذا ما يدهجنى إلى الصير يا يوسف . لكنى أحسن الليلة
.. كأن ريحا من ديارها تهب علينا.
- لعلها الآمال يا مريم .. فالآمال لا تعرف حدودا للزمان
أو المكان .. إنها تقضى بنا إلى مستقبل، يرسمه خيالنا ..
تصنعه أفكارنا.
وطال بهم الحديث حتى إذا أثقلهم النعاس ناموا،
وفي حبال كل منهم أمل، وإن اشتركوا همه جميعا
وأشرق صباح اليوم التالي، فكانت مريم -كعادتها-
أسبقهم إلى ضوء النهار، تبعثها سالومة، وراحتا معا تتابعان
قرص الشمس، وهو يعلو في الأفق رويدا رويدا، وتنتظران
الطريق الممتدة بين الوادي والجبل حيث يمضي الرعاة
بقطعان أغنامهم، وبينما هما كذلك أبصرنا قادمًا ينحدر
بحولهما، وقد بدت شبحوخة واضحة في خطواته، ومع ذلك
كان يسرع بحولهما، كما يسابق أحدا، أو يهرب من شيء
بلا حقه

قالت مريم

- وحق الرب - إني لأتسم ريح ديارنا، وعطر أحيائنا
بهذا تحدثنى نفسى
واقترب الخادم منهما، فما هي إلا لحظات، حتى عرفناه.

فما استطاعت سالومة أن تمسك الكلمات على شفقتها، وهي
تهنئ في سعادة
إنه .. يوسا.

وأقبل يوسف على صوت فرحتهما، وسعد بما يسمع، وقبل
أن يصل إليهم القادم . كانوا يرسمون في خيالهم أمالا
تتطلع إليها نفوسهم، لاشك أنه قدم إليهم لبشرهم بنهاية
هيرويس، أو لعل الرب قد استجاب لدعائهم فعفا عن الطفل
الذي كان يطلبه .. التفتت مريم إلى يوسف، وقالت له

- هو يوسا . ترى ما أمره؟ وما الذي دفع به إلى المجيء
إلى هذا المكان البعيد؟!

وقالت سالومة

- إن وجهه يدعو عليه مشاق السفر، فمأذا عساه جاء من
أخيه؟!

كان يوسا .. واحدا من قوم يوسف^(١) كان واحدا من
رجال الدين الذين عرفوا طريقهم إلى الله، وعزموا بالحكمة
والموعظة الحسنة، وكان قد حضر كثيرا من الأحداث التي
عاشنها مريم . يوم ندرتها أمها لله، ويوم جاءت بها إلى بيت
الرب، ويوم اقترعوا على من يكفلها، فكانت في كفالة زكريا،
ويوم خطبتها ليوسف النجار، وحين جاءت إلى قومه تحمل
ولدها، وكان واحدا ممن آمنوا بربانة مريم ومهارتها، ووقف

(١) يقال إن يوسا كان ابن أخ ليوسف

بجانبها يدفع عنها اتهام قوميها بالضليقة، ويكأن سعيدا حين علم بهروب مريم وابنها بعيدا عن مذابح هيروس.. ولئن كان لا يدري أين كانت وجهتها.

هذه الحقائق هي كل ما تعرفه مريم ويوسف عن يوسا، لكن النخى أدهشهم .. كيف ولانا جاء الرجل إليهم؟ فما كان يوسا يجلس .. حتى أسرع يقول:

- اهربوا من هنا المكان.

-؟!

- احذروا رجال هيروس .. إن جنوده قادمون إليكم.

ويهش الجميع لما يقوله يوسا .. أمس أجل هنا جاء الرجل ليلفهم هذه الرسالة، وما يهلكون إلا أن يسألوه:

-كيف عرفت ذلك؟

- إن شيطان هيروس حدد له مكانكم.

وراح يوسا رغم ما يشمر به من التعب يحكى لهم، كيف أن أحد جنود هيروس أخبره بالحقيقة، ومن أجل هذا كان عليه، أن يسابق الأيام، وأن يسرع بخطواته إل مصر - إل جبل قسقام، حتى إذا بلغه . ظهر له الشيطان ليضلله الطريق . لكن يوسا لم يستمع لكلمات الشيطان، ومضى مسرعا .. حتى وصل إليهم.

قال يوسف:

- إنها مشيئة الرب يا يوسا . إسا مضى خطواتنا على

هدى منه، وهو أكثر من هيرودس ورجاله

ولأن يوسا كان قد أحسده طول الطريق، وبلغ به التعب مبلغه، فقد كان عليه أن ينام، فانتحى ناحية من الجبل، وتوشد هجرًا، وراح في نوم عميق .. بينما اتجهت مريم ويوسف وسالومة إلى الصلاة لربهم والدعاء له، حتى إذا انتهوا من صلاتهم .. كان يوسا ما يزال يغط في نوم عميق، يوحى بمقدار ما كابده من مشاق.

وانتهى النهار أوكسًا، وما يزال يوسا نائمًا .. حتى إذا حاولوا أن يوقظوه .. أذكوا الحقيقة ..
.. لقد مات يوسا.

(١٥)

خيم السكون على قصر هيرودس، وهو الذي كان يعج
برواده، وتقللاً أنواره من قبل .. أغفرت حجراته، وضبت
أنواره .. حتى ديلات شموه .. لم تجد من النسيم ما ينحها
الحياة، فانطعت ليل القصر ظلام .. سواء ليله أم نهاره ..
حتى أرهار الحديقة وورودها تساقطت .. لم تجد من يأسف
عليها، وفي هيرودس .. صاحب القصر والحديقة .. وحيدا .. لم
يجد من يؤنس وحدته .. حتى كؤوس الشراب .. نسيها، فلم
يحد فيها نشوته التي اعتادها ولم يعد له مؤسسا .. إلا
ذكريات الأيام الخوال التي أدبرت إديار الأمس ولن تعود،
وبعض أذيال من الآمال التي يتعلق بها.

أما أستير .. فقد ابتعدت عنه، فلما ناداها بات يوم،
أقبلت إليه، وقد تضدد وجهها على غير مواعده، وبدأ عليه
شعوب ذهب بنضارته، عذبت، وقد أنطفا شهابها .. تنكلف
ابتسامة حانية .. تحاول أن ترسمها على شفتيها، فما
استطاعت فضحتها دمعان كبيران تألقتا في عينيها ..
أنراها كانت حريصة من أحل سيدها؟ أم على نفسها .. على
آمالها التي صاغت ناطلها، وثبتت في مهدها؟

كان هيرودس .. قد بعث بحووده إلى جبل تسقام في
صعيد مصر، ليعبدوا إليه الطفل وأمه بهذا أحيره شيطانه،
ويبقى هو معلقا قلبه بالأبل فب مصى غير قليل، حتى حاده

من أنباء أن الجنود الذين بعث بهم إلى مصر قد هلكوا في الطريق، وأنهم لن يصلوا إلى الصيد الذي نصب له شركه .. عند ذلك شعر هيرودس أن الأقدار تعانده . أحس كمن ينظم عقدا ثم يعرطه غيره .. ربما فكر أن يبعث جنودا آخرين، لكنه أدرك أنه أعمى من أن يحقق أمله، وأن السماء تلتص منه

استيقظ هيرودس بات صباح، وحاول أن يقف، فلم يستطيع . أعجزته قدماء .. وحاول أن يهض، فما استطاع .. ثقل جسده، فلزم فراشه .. توحره آلام نترديد وتضاعف .. لا يستطيع منها برها .. وأحس بطة في جسده تمنعه من الحركة .. تزحذه في مرقده، وكلما هم بالنهوض .. دفعه جسده إلى السقوط، فراح يتصفح وجهه من حوله، فما وجد ابتسامة من أحدهم تصبى نفسه، ولا كلمة تخفف عنه بعض ما يعانیه، فأغلق عينيه ليستعيد صورا لأحداث مضت، حتى إذا فتحهما حيل إليه أن يصره قد كف، وأن الظلمة تستر كل ما أمامه، لتبقى نظراته شاردة يعلو آتئنه، وتتصاعد رفقاته، ليزن صداها في أرجاء الحجرة، وطالت الأيام بهيرودس وهو في فراش المرض لا يترجى . تتضاعف آلامه يوما بعد يوم .. ويكبر المرض في جسده، حتى تفحيت جراحه، ونصرت عظامه، وما عاد يصدية صراخ، وهو يشعر كأنه بنام فوق صحور كالحراب، تحتضنه رمال تشتعل بالهجير .. لا يملك لنفسه نفعا، ولا لغيره ضرا

من أجل هذا .. ابتعد عنه أصدقاؤه ومنادموه .. وهجره جلساؤه وزمانيه .. حتى حدم قصره .. ضاعت أوامره بينهم

دون أن يجيبه أحد إلى ما يطلب، وأصبحوا في شك مما
يقوله أو يفعله، وما عانوا يستجيبون لصراحه أو صيحاته .
حتى حيل إليه أنهم سعداء بما أصابه!!

وأحسن هيرودس باقتراح نهايته، وأن الموت مدركه، فقد
طالت به أيام المرض نون أن يبذل منه، أو تشف آلامه، فنادى
شيطانه . عليه يعبد إلهه عافيته، فكان شيطانه أسرع إليه
من نفسه . لئى نداءه، ولكنه بدلا من أن يشفيه . سؤل له
فكرة أسعدته . فما مضى الشيطان عنه . حتى أمر هيرودس
رجالہ، فجمعوا له الآلاف من شباب شعبه . من أبناء الدين
كانوا يمارسون سياسته، والذين أسعدهم مرضه، وينتظرون
يوم تنتهى حياته . جمع هؤلاء جميعا، وقبدهم فى سلاسل .
وأودعهم سجن ماكيرا . بين دهشة الناس . وأمر رجاله، أن
يدبوا هؤلاء الشباب يوم إعلان وفاته! . لم يكفه ما اقترفه
من مباح أيام حياته . دبح روحه وولديها وصديقيه، ثم
مدبحة الأطفال الأبرياء فى بيت لحم ومحولها، فشاء أن
تستمر معاصيه حتى بعد موته . كأنما يغسل الدم بالدم!!
ويجمل الناس من هول ما رأوا وما سمعوا، والشباب يساقون
فرأى وجماعات إلى قلعة ماكيرا . القلعة السوداء فى
انتظار مصيرهم الذى شاء لهم حاكمهم

وأصبح الناس ذات يوم .. ملأوا خدم فى القصر . يصرخون
فى سعادة.

- لقد مات هيرودس.

(١٦)

كانت وفاة يوسا أمرا محزنا لأفراد العائلة القديمة،
جمدت في عيوبهم الدموع من شدة ما أصابهم . إلا من
دمعة تفرقت في عين مريم .. لقد تقنوا لوبقى يوسا معهم ..
يشاركهم حياتهم في جبل قسقام، ويصاحبهم فيما بقى لهم
من رحلة في مصر، ويستعيد معهم أخبار قومهم . لكن الأقدار
شاءت له غير ما أرادوا . خشيهم منه أنه كان ريحا طيبة
هبت عليهم من بيارهم . ثم مضت كلمح البصر، وما يتركون
إلا أن يسرعوا بحسد يوسا إلى مثواه الأخير في أحد الكهوف
بالجبل، وأن يقيموا فوق قبره شاهدا . يحكي للخلف من
بعده قصة هذا الشيخ الذي جاء من فلسطين لتطوى صفحات
حياته في هذا المكان . غريبا عن وطنه، فما انتهبوا مما فعلوا
.. حتى قال يوسف لمن معه:

- هادكروا نصيحة الرجل لكم .. أن يبتعد عن هذا المكان
لعل الرب شاء أن يبقى على حياته أياما، وأن يهيئ له من
سبل الأمان في طريقه ما استطاع بها أن يصل إلينا . حتى
يبلغنا هذه النصيحة.

ثم التفت إلى مريم - وقال

- إن رجال هيرودس ما يزالون يتعقبون وليدك . ولحيرانا
أن يبتعد.

قالت سالومة

- وإلى أين يا يوسف؟!

- إلى أبعد من ذلك يا سالومة .. نحو المزيد من الجنوب
إننا في مصر، وسنبقى فيها .. حتى يأمرنا الرب بالعودة إلى
ديارنا.

كان على العائلة المقدسة أن تستعد للرحيل في انتظار ما
تتحققه لهم الأيام.

حتى كانت ذات ليلة ..

هدأ يوسف للراحة .. يطلب النوم، بعد أن انتهى من
صلاته ودعائه، فسمع هاتفا يناديه:

- (يا يوسف .. قم وخذ المجسى وأمه واهب بهما إلى
أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كان يطلبون نفس
الصبى^(١)).

استيقظ يوسف من نومه، فآذرك أنه نفس الصوت الذي
ألفه من قبل، والذي كان قد أنبأ بالذهاب إلى مصر، وحذره
من رجال هيرودس، إنه في هذه المرة .. يطلب منه العودة إلى
فلسطين، فأسرع إلى مريم وسالومة .. يحذرهما بأمر الرب له،
وقد ملأت السعادة وجهه، وينطق بها لسانه.

كانت لحظات سعيدة حقاً .. عاشتها العائلة المقدسة.

(١) إيجيل متى الإنجيل الثاني (٢٠)

وهم يستمعون إلى كلمات يوسف .. يهزئ بعضهم بعضا، ويتحلمون بقلوبهم وخباياهم إلى يوم يصلون إلى فلسطين، وما يهلكون إلا أن يتجهوا إلى ربهم .. يصلون له .. يشكروونه.

ما هي إلا بضعة أيام .. ودع فيها أفراد العائلة المقدسة مكان إقامتهم وقبر يوسا في جبل قسفا، واتجهوا نحو الجنوب .. فوصلوا إلى جبل دركة^(١)، مما لبثوا غير قليل .. حتى اتجهوا إلى أسبوط.

من أسبوط استقلوا قاريا شراعيا .. مضى بهم في النيل .. متجهين نحو الشمال .. مارين بنفس الطريق الذي جاءوا منه لقد كانوا من قبل خائفين .. هارين .. لكنهم اليوم فرحون .. مستبشرون .. كثيرا ما استعانوا أحداثا وصورا عاشوها في تلك المدن والقرى التي مروا بها.

وإذا كانت العرجة قد غمرت نفوسهم لعونتهم إلى ديارهم، فلم يكن تلك لئسبهم تلك الأيام السعيدة التي قضوها في مصر بين أحضان المصريين وحبهم، فقد كان عزيزا عليهم أن يفسدوا تلك الأرض الطيبة .. كانت قلوبهم تحرق بخفتين مختلفتين .. أما إحداهما فحفلة الفرح لعونتهم إلى ديارهم، وأما الأخرى، فالحساسهم بالعراق لصر .. أرضها وشعبها، وما يهلكون، وهم يشعرون بالخفتين إلا أن

(١) جبل دركة على بعد ٨ كم من أسبوط، به دير للعدراء مريم في المكان الذي أقامت فيه العائلة المقدسة، وكهستان إحداهما مطبوعة في الجبل، والأخرى على سفحه باسم العدراء مريم

يشكروا الله أن هيا لهم طريق الخير والسلامة.

هكذا عاش أفراد العائلة المقدسة مع تكرياتهم وأحلامهم وأمالهم . حتى وصلوا إلى مصر القديمة، ومنها اتجهوا إلى المحبة^(١) حيث أتبع الله على يد الطفل عيسى بشرماء، استلحم به، وقضوا فيها وقتاً طويلاً، ثم استأنفوا السير نحو الشرق، فوصلوا إلى بلطيس ثم العريما والعريش حتى حدود مصر

من حدود مصر . دخلوا فلسطين، حتى وصلوا إلى بيت لحم^(٢) وساء لهم تلك الأحداث التي وقعت لأهلهم، وما حدث لنبي الله زكريا، ووفاة الأوصياء، وابتعاد يحيى إلى البادية، كما علموا بأنه أرجح لاوس حلف أبناء هيرودس الكبير.

وأدرك أفراد العائلة المقدسة مقدار ما قد يعرّط بهم من أخطار هيرودس الابن، مما قد يدفعه إلى أن يستمر في نفس السياسة التي كان أبوه يتبعها في ربح الخليل، فاثروا أن يبتعدوا عن الخطر، فمضى يوسف ومريم وعيسى إلى الشمال . حتى وصلوا إلى الناصرة^(٣)، وعاد يوسف إلى حانوته على

(١) راجع هامش الفصل السابع من هذا الكتاب.

(٢) بيت لحم في أرض العفيل . تقع جنوب القدس (أورشليم) بعد حوالي ٦ كم بها كنيسة المهد الذي أنشأه الأمباطور الروماني قسطنطين فوق مكان الذي ولد فيه المسيح عيسى.

(٣) الناصرة تقع في أرض الجليل فوق قمة جبل عال بجوارها بئر ماء يعرف ببئر المدرا + مريم، وفي غربها تقع جبل الكرمل، وفي شرقها جبل طابور وفي شمالها جبل حرمون (الشيخ).

ناصية أحد الشوارع بالناصرية ليزاول عمله كنحاس، يشاركه
عيسى العمل، وينعمان سوياً بما تويئته لهما مريم من سعادة .
ولتقصي بهم جميعاً قافلة الحياة كما شاءها الرب لهم،
ولتكون صورة رحلتهم إلى مصر باقية في أذهانهم على مدى
السنين

وبعد ..

فهذه هي خطوات العائلة المقدسة منذ خروجهم من فلسطين إلى مصر . وعيونهم تطير إلى أن أسجلها على صفحات هذا الكتاب . من وجهة نظر مواطن مصري . يشعر بسعادة بالغة أن الله تعالى قد اختصر وطنه مصر^(١) بهذه المكرمة والفرحة . أن تكون ملانا وملجأ لنبي الله عيسى وأمه .. هروبا من بطش عدو يترصد لهما، ليحدا فيها الأمان والمحبة

وإذا كان بعض الرواة والدين كتبوا عن هذه الرحلة . قد اختلفوا حول بعض الدواحي

فمثلا قال بعضهم: إن عيسى حين جاء إلى مصر . كان عمره ست سنوات، وقال آخرون، كان ما يزال رضيعا . لم يتعد بضعة شهور. وبين هؤلاء وهؤلاء . قال فريق ثالث كان عمره يقترب من العام الثالث

وعن المدة التي قضتها العائلة المقدسة في مصر: قال قائلون كانت ست سنوات، وقال آخرون: أنها ثلاث سنوات، تريد أو تنقص قليلا.

المعروف أن أفراد العائلة المقدسة هم العذراء مريم وابنها عيسى، وخطيبها يوسف النجار.. بينما أضاف البعض إليهم

(١) ويرد كلمة مصر في الكتاب المقدس ٦٠٠ مرة. وفي القرآن الكريم خمس مراراً.

في رحلتهم . سالومة . القافلة التي حصرت ليلة ميلاد عيسى خارج مدينة بيت لحم، فرأت من البركات والمعجزات، ما جعلها تدخر نفسها لخدمة مريم، وتصبحها في رحلتها إلى مصر.

وسواء أكان هذا الرأي أم ناك .. أم غيرهما، فإن كل الآراء أجمعت على أن الأسرة المقدسة قد زارت مصر .. هذه حقيقة.

أما كيف كان يعيش أفراد العائلة المقدسة؟ بمعنى آخر كيف كانوا يحصلون على ما يحتاجون إليه من طعام وشراب يقوم حياتهم؟ . فالرب كان كفيلاً بهم، وما كان يتركهم للجوع أو الطمأ أو التسول، وهو الذي كان يوزق مريم في الحرات قائمة . عابدة قانتة (كَلَّفَ نَحْلَ عَلَيْهَا زُكْرًا الْخِرَابَ وَحَدَّ عِنْدَهَا رُفْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(١)

ولعلنا من خلال أحداث الرحلة . قد عشنا مع بعض المصريين الذين أكرموا الأسرة المقدسة ورحبوا بهم، كما حدث في تل بسطة وسنود وعين شمس، وكانت بركة عيسى ومريم طريقاً إلى المحبة لكل من التقوا بهم، وإنا كان الله قد حماهم من أخطار الطريق ولصوصه، فهو أرحم بهم من أن يتركهم للجوع.

أما ما ذكره بعض الرواة من أن مريم ذهبت بات يوم تطلب خبزاً لأنها (كان ذلك في منطقة المطرية) فلم يحبها

(١) سورة آل عمران الآية (٣٧)

أحد إلى طلبها، وأن عيسى ابنها دعا على هذه المنطقة، وأن
 العجيب لا يحتمل في هذا المكان حتى الآن . فأننا أسرة مريم
 عن أن تستجدي طعنا لابنها .. كما أسرة عيسى - كلمة من
 الله وروح منه - أن يدعو على أحد بها يمينه، وهو الذي خلقه
 الله ليكون رسول سلام ومحبة .. وأنا كان البعض يرى في
 هذه الحكاية معجزة لعيسى، فإن عيسى عليه السلام أكبر من
 أن تكون معجزة دعاء بشر لأحد . كفاء من المعجزات
 الكثيرة التي أحراها الله على يديه طوال حياته، والتي ورد
 ذكرها في القرآن الكريم والأنجيل

بعض الرواة - وأنا أميل إلى هذا الرأي - ذكروا أن مريم
 كانت تجمع سنابل القمح حطب الحصادين، وأنه كان لها
 حزابان . نضع في أحدهما ابنها الطفل عيسى، ونضع في
 الجراب الآخر ما نجمعه من سنابل القمح، ليقيموا عليه
 حياتهم .. كما أنها كان تغزل الصوف والكتان لتصنع حيوانات
 . لأنها كان تبيعها أو تنسجها ملابس لعيسى ويوسف .
 ولعل يوسف هو الآخر .. كان يزاول حرفته كمنهار متى
 سمحت له الفرصة بذلك^(١)، وقبل كل هذا ويعدده .. فلم يكن
 للمصريين أن يدفعوا مريم إلى أن تستجدي، وهم الذين عرفوا
 بالكرم والمروءة.

حقيقة هامة يجب أن يؤكدناها، وهي أن رحلة

(١) ذكر بعض الرواة أن يوسف المنجار زاول عمله كمنجار حين كانت
 العائلة المندسة تعيش في منطقة أور (عبر شمس).

العائلة المقدسة إلى مصر.. لم تكن للاستمتاع أو للسياحة والترفيه أو التجارة . لكنها كانت رحلة شاقة . عانى فيها أفرادها . مشقة الطريق وبخشته ووعورته في بعض المناطق، وتصلوا قسوة البرد حين كان الشتاء، ولطى الهجرة حين كان الصيف . كفاهم أنهم تركوا ديارهم وأهلهم، وهربوا حائعين ممن يتعقبهم من رجال هيرويس الذى كان يتربص لهم . صحيح أنهم أنسوا إلى المصريين ويأكلوهم حيا بصب . لكن ذلك لم يكن لينسيهم حبيبهم إلى وطنهم وقومهم . هذه طبيعة النفس البشرية التى جذبت إليها . بدا ذلك واضحا من خلال لعنهم ليوم العودة إلى فلسطين.

ويكفى مصر فخرا أنها تزخر بالآماكن التى رارتها العائلة المقدسة خلال رحلتها الطويلة التى قدرها البعض بأكثر من ألفى كيلومتر . ما بين شمال مصر وجنوبها وشرقها وغربها هذه الأماكن التى ما تزال أو بعض معالمها باقية حتى الآن تحكى للأجيال المتعاقبة رحلة العائلة المقدسة .. هذا بالإضافة إلى الأماكن الأثرية من الأبنية والكنائس التى ترجع إلى بداية عصر تحول المسيحية مصر، وما لاقاه المسيحيون الأوائل من اضطهاد، وتعذيبهم على يد الرومان .. مما دفع بهم إلى الهروب إلى الصحراء حيث أقاموا فى أديرة بعيدة بائية .. ما تزال بعضها موجودة حتى الآن.

لقد مضى ما يقرب من ألفى عام على هذه الرحلة المباركة دون أن تخطى هذه الأماكن بما تستحقه من اهتمام . إنها ما تزال كحبات اللؤلؤ بقيت بفينة بين أصدائها .. تنتظر أن

شئت إليها يد غطاس ماهر ليصطادها، ويخرج ما فيها من
لؤلؤ - لينظمها عقدا في جرد الحسناء مصر.

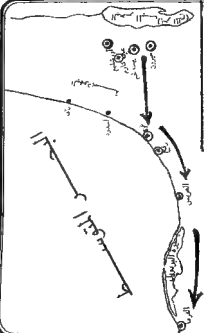
ترى .. متى تصل أيدي الإصلاح وال عمران والاهتمام بهذه
الأمساكن، لتتصل بغيرها من الأماكن الإسلامية والآثار
الفرعونية، لتكون منظومة متكاملة، تجذب السياح إلى مصر
من الناهل والخارج، ولتكون مورد رزق، ومصدر رخاء
وسعادة للمصريين جميعا ١٩٩

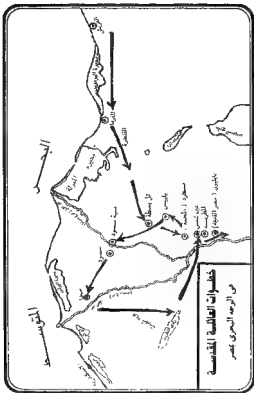
إنها الأمل تتطلع إليها .

الخرائط

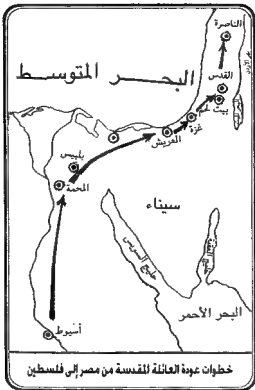
خطوات العودة المقدسة

من فلسطين إلى القرم









مراجع الكتاب

- | المؤلف | الكتاب |
|--|--|
| | ١- القرآن الكريم |
| | ٢- الكتاب المقدس |
| وزارة السياحة | ٣- العائلة المقدسة في مصر |
| أحمد حسين | ٤- موسوعة تاريخ مصر |
| تقي الدين المقرئى | ٥- الخطط المقرئية |
| السيد محمد عاشور | ٦- بلقيس بلد الأنبياء
والرسل |
| كمال محرم | ٧- آثار حضارة الفراعنة في
حياتنا الحالية |
| تأليف أوليفر ترجمة عبد
المنعم أبويكر ومحمد أنور
شكري | ٨- الديانة المصرية القديمة |
| آباء الكنيسة الأرثوذكسية | ٩- مريم العذراء مريم |
| | ١٠- أعمدة من مجلات الصور، نصف الدنيا، صباح الخير،
والدارة السعودية وبعض المقالات التي كتبت في
الصحف اليومية. |

كتب للمؤلف

- (١) المزارع الصهيونية في فلسطين نار المعارف - سلسلة اقرأ ١٩٦٥
(٢) سجين المنصورة طبعة أولى النار القومية للطباعة ١٩٦٥
طبعة ثانية نار سنابل ١٩٩٤
(٣) الحذاء مريم وميلاد المسيح بين القرآن والإنجيل
نار نهضة مصر - القاهرة ١٩٩٣
(٤) مولد محمد صلى الله عليه وسلم نار سنابل ١٩٩٥
(٥) الكعبة والمسجد الحرام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى الآن
نار سنابل ١٩٩٧
(٦) المشروعات الجديدة للتنمية في مصر ١٩٩٧
(٧) النبي الشهيد يحيى عليه السلام توزيع الأهرام - ١٩٩٨
(٨) الطريق إلى النجاح توزيع الأهرام - ١٩٩٩
(٩) خطوات العائلة المقدسة في مصر ١٩٩٩

رقم الإيداع ٩٩/١٣٠٩١

الترقيم الدولي I.S.B.N.

977 - 19 - 9703 - 3

مطبعة الراشد بالمنصورة

ت: ٣١٨٩٠٣ - ٣١١٥٦٧

هذا الكتاب

* يمتضى مع أفراد العائلة المقدسة في خطواتهم منذ خروجهم من فلسطين ، والأماكن التي زاروها في مصر ، حتى عودتهم إلى ديارهم .

* يتحدث الكتاب عن المعجزات التي أجراها الله على يد المسيح عيسى عليه السلام في كثير من الأماكن التي زارتها العائلة المقدسة: ما بين شمال مصر وجنوبها ، وشرقها وغربها .

* يوضح كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية عن هذه الأماكن ، وما خلفته هذه الزيارة من آثار دينية .

* في نهاية الكتاب . . يجد القارئ مجموعة من الخرائط توضح مواقع المدن والقري التي زارتها العائلة المقدسة في مصر .